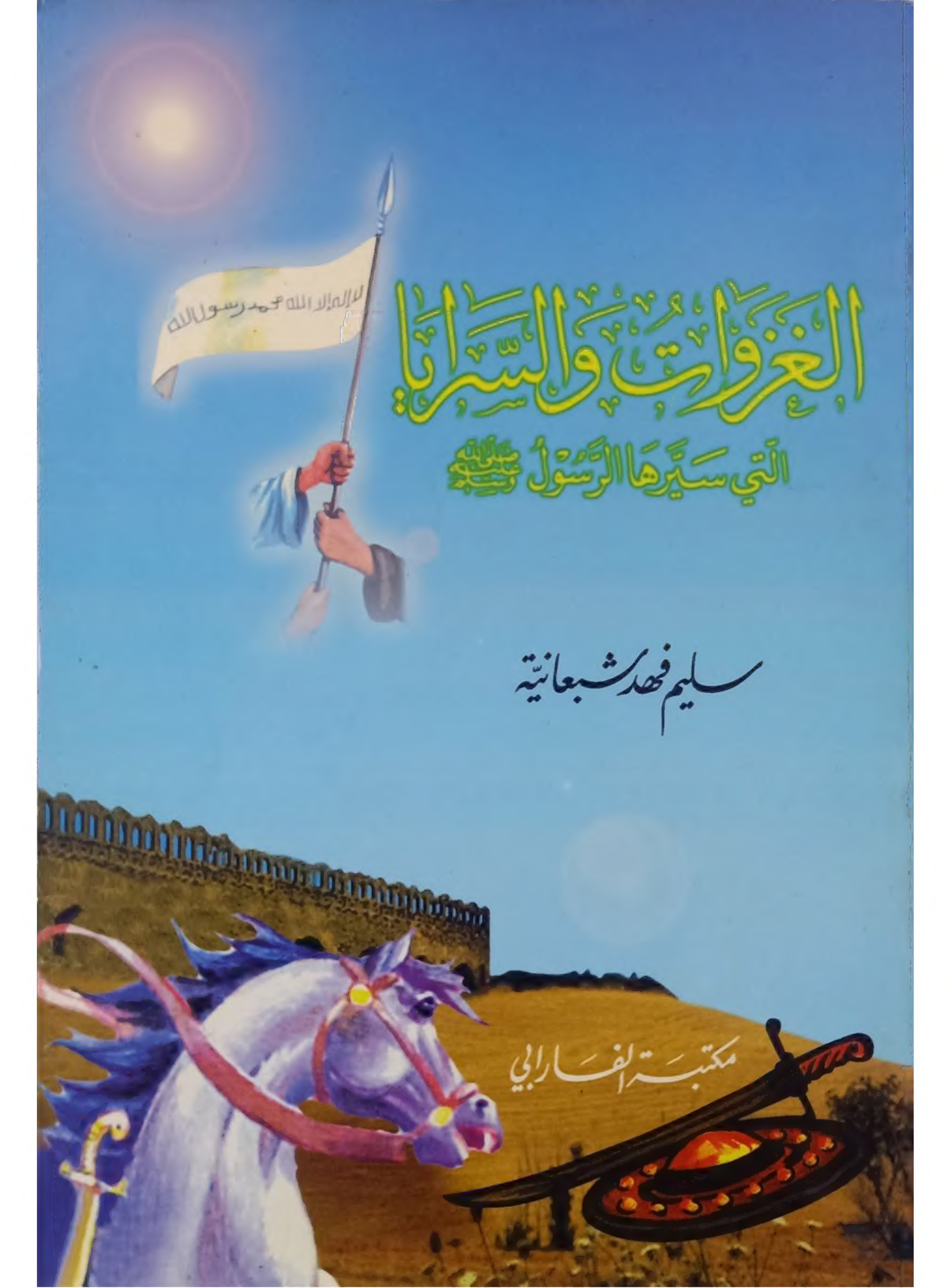
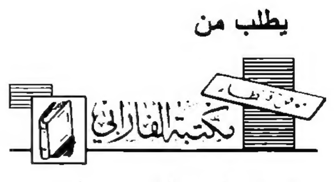

لا إله إلا الله محمد رسول الله
الغزوات والسرايا
التي سيَّرها الرَّسولُ ﷺ
سليم فهد شبعانيّة
مكتبة الفارابي

الطبعة الأولى

١٩٩٩م - ١٤١٩هـ

يطلب من



دمشق حلبوني شارع مسلم البارودي

ص.ب ٢٣٨٢ هاتف ٢٢٢٦٧٨٦



الغزوات والسرايا

التي سيّرها الرسول ﷺ

سليم فهد شبعانيّة

مكتبة الفارابي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله خير الأسماء

قـــال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ .

وقـال السيد الأعظم محمد ﷺ : «لاتتمنّوا لقاء العدوِّ وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيراً» .

وقال صاحب كتاب حضارة العرب المستشرق غوستاف لوبون : «فالحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم» .

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ الغزوات والسّرايا التي سيّرها النبيُّ محُمدٌ ﷺ، خلال عقدٍ من أواخر حياته ﷺ، قد صنعت تشريعاً عسكريّاً متين المبادئ قويّ البُنى، محكم القواعد سامي المقاصد..

وقد عكف عليه الدارسون في الأمس، وما يزالون على دراسته عاكفين، وكلَّ يوم تجدهم يطلعون على الناس المختصين بهذا العلم، وغير المختصين، بنظريات، وفرضيات، وخطط، وتجارب، مستقاة من وحي المغازي والسّير التي قادها النبيُّ محمدٌ ﷺ، أو فوض قيادتها لمن اختاره من أعوانه رضي الله عنهم.

وليس أمر الباحثين في أساليب الحروب المحمدية مثيراً للعجب، بل من البدهيّ أن يهتمّ كل ذي سياسة عسكريّة بالسياسة العسكرية التي اتبعها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا شأن القادة اللاحقين أن يحللوا كل خطوة من خطوات القادة السابقين، فيفيدوا منها. ولا يحسبن أيٌّ امرئٍ أن قائداً كثرت انتصاراته لم يفد من علوم الآخرين، أو لم يحط علماً بخطط

خصمه، وإلاّ كان ضرباً من الخيال أن نزعم أن النصر يوهب طفرة دون سابق عهد بالشؤون الحربية.

وإن كل ناظر في حياة النبيِّ العربي محمد ﷺ، والجانب العسكري منها -خاصَّه- ليدرك بوضوح أن الجهاد في سبيل الله تعالى قد أولاهُ الرسول ﷺ، الاهتمام الأكبر من حياته، وقد لا يجدُ دارسُ سيرته العقدَ الأخير من عمره عليه السلام إلا مزدحماً بأمر الجهاد، إما استعداداً أو تبليغاً، أو دفاعاً، أو إعداداً لهجوم، أو تدريباً على قتال، أو غير ذلك من شؤون الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولم يستغرق حالُ الحربِ جُلَّ وقت النبيِّ عليه السلام بغية أغراض رخيصة كما عليه المستعمرون في هذه العصور، بل كان الجهاد الإسلامي بقيادة محمدٍ أو مَنْ يُنيبُه محمدٌ لأهداف رفيعة المستوى لا يدنو من سمائها أيُّ هدف من أهداف سائر المحاربين.

إن محمّداً عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى العالمين، كلّفه برسالة الإسلام، دين العزّة، ودين السلام، وقد جاء بشرع يحقق حريّة النّاس، ويحرّم الظلم، والعدوان، وسلب الحرّيات. وإنه لا يتصوّر أيّ عاقل أن تتوفّر هذه المطالب العالية دون جُهْدٍ كبير يبذل لتوفيرها.

ولهذا يعّرف العلماء الجهاد بأنه بذل الجهد والطاقة في قتال الكافرين، بعد إبلاغهم الدعوة الإسلامية، وتعريفهم حقيقتها إن عارضوا في إقامة الدولة

الاسلامية، أو ناصبوها العداء، أو حالوا دون تبليغ الدعوة، أو اعتدوا على وطن المسلمين. وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣]

وإذا تفحّص كلُّ منصف بعين العدل كل المعارك والحروب والوقائع النبويَّة فإنّه لن يرى هذه الحروب كلّها إلا لتحقيق هذه الأهداف العظيمة:

إما لإقامة حكم الله في الأرض، وإزالة العوائق من طريق الدعوة الإسلامية، وليس لإكراههم على الدخول فيه، لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

لهذا لم يعرف الباحثون أن الإسلام شهر السيف في وجه أحد ليُسْلم، إلا في وجوه الطواغيت والمتكبرين، الذين منعوا وصول الدعوة الإسلامية إلى الشعوب.

وإما لردِّ الظّلم والعدوان الواقع أو المتوقّع على الوطن، أو على أي جزء يتعلّق بالوطن، من دين أو مال أو ذرّيّة أو غير ذلك. وفي هذا الردِّ المسلّح إيثار للسّلم، ودعوة صادقة إليه، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٨]

والنبيُّ محمد ﷺ لا يَفْرُطُ على أحد، ولا يعتدي على شيء، ولا يظلم أحداً، وكذلك لا يرضى أن يكون هو وواحد من أفراد أمته مظلوماً أو معتدى عليه.

فالسّلم الذي يدعو إليه هو السلم العزيز القائم على الحقِّ والقوّة، فما دام أنَّ هناك باغين متسلّطين مستعمرين يستخدمون القّوة في عدوانهم على

حقوق الآخرين حباً في استعباد الشعوب والاستعلاء عليهم، فإنّ نبيّ الإسلام لم ير بداً من جعل الجهاد فرضاً لمجابهة العدوان، وللدفاع عن الذات، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]

وإما للمحافظة على العهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]

وهذا أمر منطقي إذا كان بين المسلمين وغيرهم مهادنات، أو معاهدات، أو صلح، أو أي عهد أو ميثاق، وأخلَّ الجانب الآخر بتلك المواثيق كان ذلك مُسوَّغاً لقتالها، لتذعن إلى مضامين هذه العهود، أو لِتَهابَ جانب الدولة المسلمة، فتحترم العقود.

فإذن لنعلم أن القتال الذي شرَّعه النبيُّ العربيُّ محمَّدٌ صلوات الله عليه وسلامه، وقاد معاركه بنفسه أو بعض صحابته هو أشرف قتال على الإطلاق، نزّل الله فريضته على المسلمين لكسر شوكة المتغطرسين، ولقمع كيد المعتدين، ولصد الظالمين، ولحماية حق كلِّ آدميٍّ في دِين أو عِرض أو نفس أو مال أو أرض.

وأما ما افتراه الحاقدون على الإسلام بأن زعموا أن الإسلام جنح إلى الإرهاب.. فذلك واحدة من مئات حملاتهم الصّليبية لمحو نور الإسلام من الأرض، ابتدأتها عدوّة الإنسانية منذ أحقاب، ولازالت الصهيونّية وعبيدها نَشِطَةً في ترويج هذه الافتراءات..

ولأجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم في الدنيا أن يهبّ لتحرير المقدسات التي استلبت، وطُرِدَ أهلوها. وإنه يأثم كل من يتخلّف عن أداء هذا الواجب.

فما من أيّام الجهاد فيها أشدّ إلزاماً على كل مسلم من هذه الأيام التي يهدد فيها الإسلام والمسلمون بالإبادة، ويتألّب عليهم صنوف الأعداء، ويتحالفون ضدهم هادفين إلى إفنائهم.

وها هي أجزاء من الوطن العربي تسقط في أيدي قراصنة العالم الجديد، وهي لن تكتفي بالقدر المغتصب حتى الآن، بل أغراضهم ترمي إلى ابتلاع سائر الأرض وصهر شعوبها.

فهل يستهجن من به مسكة عقل ودين وفُضْلَةٌ من نخوةٍ ومروءة.. الدعوة إلى الجهاد، وإتقان التسلح صناعة واستخداماً؟! وإن دعوة محمّد ﷺ إلى القتال لا لسفك الدماء، وسحق الشعوب، بل إهابة بأهل النجدة أن يوطّنوا أنفسهم على التضحية في سبيل عزّة النفس، وحماية الحق، وحراسة الكرامة، وصيانة العدل، وتطبيق المساواة، وفرض الأمن في البرِّ والبحر والجوّ. فكيف بعد إيقاننا بهذه المسلّمات من أهداف الإسلام في الجهاد يُستنكر بذل الروح في سبيل أمّة تسابق ذئاب الأمم على افتراسها؟! قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]

وإن الله تبارك وتعالى أسرع رضاءً عن مجاهد إلى عدوٍّ يتربّص بالأمّة شرّاً، سواء جاهد بطيّارة أو بسفينة أو بدبّابة أو مشياً على الأقدام.. روى الإمام مسلم في صحيحه (٦/ ٥٢) وغيره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة. ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي، ألا إن القوّة الرمي». والرمي أعمّ من أن يكون بالسهم عن قوس أو بالرصاص من بندقيّة أو بالقنابل. وقد قال ﷺ: «مَنْ رمَى بسهم في سبيل الله فهو عِدلُ رقبة محرّرة». [رواه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم].

وهكذا عمل الرسول محمد ﷺ على تصنيع الجنديّ المسلم يرفع من معنويّاته، ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية، من أجل كسب المعارك، أو الموت تحت ظلال السيوف، مجتازاً باستشهاده الخاطف السريع، الجسر الذي يصل أرض المعركة بالجنّة، حيث الخلود الدائم والنعيم المقيم، ولذة القرب من الله سبحانه وتعالى، الذي قال مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]

وهذا البذل الذي شهده تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ هو الذي

كان يفجّر طاقات المسلم القتالية، ويحيل كلاً منهم إلى عشرة مقاتلين[1].

وسنرى الرسول ﷺ الآن وفيما بعد ينادي أصحابه دوماً في لحظات المصير الحرجة بين النصر والهزيمة لكي يهرعوا إلى الحسنين: النصر أو الجنّة.. كان يقول لهم: «جاهدوا في سبيل الله فان الجهاد باب من أبواب الجنّة ينجي الله به من الهمّ والغمّ».. «من أرسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم».. «من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار».. «من جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء».. «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».. «حُرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله».. «إذا تركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[2]

وأما الكتاب الذي نفتح صفحاته في وجوهنا الآن «الغزوات والسَّرايا التي سيَّرها النبيُّ محمدٌ ﷺ» فهو تصوير لأيّام الجهاد النبويّة، بصورة عصريّة ـ لغة وأسلوباً ـ كي ينتفع منها كلُّ من اطلع عليها مهما كانت ثقافته. مع اعتمادي على المصادر الموثوقة المدوّنة لأخبار المغازي والسِّيَر، القديمة والحديثة.

هذا وأرجو أني قدّمت لمكتبة أمتي العربية والإسلامية سفراً يجدونه خير مزوّد للجيل المسلم من آثار فخر العرب سيدنا محمد بن عبد الله الهاشمي

---

[1] دراسة في السيرة / د. عماد الدين خليل/ ص ١٦١.

[2] أنظر هذه الأحاديث في الترغيب والترهيب للمنذري /ج٢ ص ٢٥٠ ـ ٢٨٠/.

المطلبي القرشي ﷺ زاداً لا ينضب خيره؛ وبخاصة في زمن كلح وجهه، وحمي أنفه بالحادثات الوخيمة. .

هذا ونسأل الله تعالى نصرة العرب والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

السنة الثانية والأولى قبل الهجرة النبوية

بوادر الجهاد المحمدي ومقدماته

إنَّ الحديث عن جهاد النبيِّ ﷺ، يحثنا لأنْ نعرفَ ماذا جرى للنبيِّ وأصحابهِ قبل الهجرة.

لقد رأى رسول الله ﷺ، كفار قريش لا يتركونه وأصحابه بسلام، بلْ ينكلون بأصحابه في وحشيةٍ قاسية.

وتعددت أنواعُ التعذيب التي شنها الكفار على أصحاب رسول الله ﷺ فمن أنواع الاضطهاد والتعذيب التي عانى منها الصحابة رضي الله عنهم ما يلي:

هذا بلال بن رباح الحبشي، وأمه حمامة، كان عبداً يملكه أمية ابن خلف الجمحي. لما أسلم بلال، جاءه أميةُ ومنعه، لكنّ بلالاً لم يمتنع عن الإسلام فصار يعذبه ويؤذيه.

كان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، يلقيه في الرمضاء، على وجهه مرّة، وعلى ظهره مرّة أخرى، وهو عريان، ويأمر بالصخرة الثقيلة فتلقى على ظهره، ويقول له: يا أسود، لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد.

فيجيبه بكل قوّة: أحدٌ. . أحدٌ، يعني لا أعبد إلا الله الواحد الأحد. وظل على هذه الحال مدة طويلة.

فرآه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، يعذّب بهذه الطريقة النكراء، فقال لأمية، ألا تتقي الله في هذا المسكين؟

فقال: أنت أفسدتهُ، فقال له أبو بكر: أتبيعني بلالاً؟ فقبل، ولكن بثمن باهظ، فاشتراه أبو بكر، وأعتقه لوجه الله تعالى، فصار بلالُ حراً طليقاً.

وهؤلاء آل ياسر (ياسر، وابنه عمار، وزوجه سميّة).

ولّما علم مالكوهم من بني مخزوم بإسلامهم، صاروا يخرجونهم إلى الأبطح في الظهيرة، يعذّبونهم بحرّ الرمضاء، حتّى مات ياسرُ، وزوجُهُ سميةُّ تحت العذاب.

وكان ﷺ، يمر بهم يدعوهم للثبات، ويبشرهم بالجنة قائلاً: «صبراً آل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنّة».

وهذا خباب بن الأرتّ، أسلم سادس ستّة، فأخذه الكفّار وعذبوه، بوضع الحجارة المحماة بالنار على صدره وظهره وبطنه، ولووا رأسه، لكنه ثبت على الإسلام ولم يجبْهم إلى طلبهم.

وهذا صهيب بن سنان الرومي، كناه رسول الله ﷺ (أبا يحيى).

عذبه المشركون كثيراً، ونهبوا أمواله، ولم يترك الإسلام.

وهذا عامر بن فهيرة، أسلم قديماً قبل دخول رسول الله وصحبه دار الأرقم.

عذّبه المشركون فلم يترك دينه، فاشتراه أبو بكر وأعتقه.

وهذا أبو فُكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، لّما أسلم، أخذه أمية وربط في رجله حبلاً، وجروه حتى أشرف على الهلاك، ثم ألقوه في الرمضاء (حصى

مُحماة بأشعة الشمس) فزحفت من أمام وجهه حشرةٌ، فقال له أمية: أليست هذه ربك؟ فأجابه أبو فكيهة: الله ربي وربك وربّ هذه. فانقضَّ عليه يخنقه خنقاً شديداً. وظنوه مات، فمرّ به أبو بكر ووجد فيه حياة فاشتراه وأعتقه. وهذه زُنَّيْرة، وكان أبو جهل يعذبها حتّى عَمِيَتْ.

فقال أبو جهل: إن اللات والعزى (حجران يعبدونهما) فَعَلا بكِ العمى، فقالت: اللات والعزى حجارة لا تدري مَنْ يعبدها، ولكنَّ عمايَ بأمرِ الله، وهو قادر على ردِّ بصري، فأصبحت وقد ردَّ الله بصرها، فاشتراها أبو بكر وأعتقها. وهذه النّهدية كانت تملكها امرأة كافرة، كانت تعذبها، وتتفنن في تعذيبها حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها. وهذه أمّ عُنَيْس، كان الأسود بن عبد يغوث يعذّبها، فابتاعها أبو بكر وأعتقها. وغير هؤلاء يطول ذكرهم.

وهكذا أسرف المشركون في تعذيب الضعفاء من المسلمين، ولم يسلمْ ذوو الشرف والمكانة من الأذى أيضاً، فقد عُذِّبَ عثمان بن عفّان، ربطه عمُّه بحبلٍ، وجعل يضربه ضرباً مبرحاً.

وكان الزبير بن العوام يُلَفُّ في حصيرٍ ويترك جوار نارٍ تدخِّنُ. وقُيّدَ أبو جندل بحديدٍ وحُبِسَ. وضُرب أبو بكر حتى شُجّ رأسُه وسال منه الدم وغُشِيَ عليه.

ولم يسلم رسول الله ﷺ، من الأذى، فكانوا يلقون الشوكَ والقَذَرَ في طريقه، وألقوا على رأسِ التراب وغير ذلك. لكن الله يؤيدّهم بقوّته ويثبّتهم بتثبيته.

وأخفقت كلّ المحاولات التي أرادت قريش أن تثني بها عزيمة النبيّ ﷺ وصحبه رضي الله عنهم، عن هذا الدّين الحنيف.

وقال الله تعالى له: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]

لم ييأس رسول الله ﷺ، بل اجتهد أكثر في الدعوة، وصار ينظر إلى خارج مكّة ويحاول الالتقاء بقبائل أخرى.

ويعرضَ دعوته على القبائل عن طريق الأسواق، والمواسم.

فكانت القبائل تَفدُ إلى مكّة، في الأشهر الحرم، فيحضرونّ الأسواق، مثل سوق عُكَاظ، ومجَنَّة، وذي المَجَاز. وكلها قريبة من مكّة.

وكانوا يحجّون للبيت العتيق (الكعبة) وكان حجهم وقتذاك مليئاً بالوثنية والخرافات والمخالفات، ومع هذا يأتون فيحجّون على الطريقة الجاهلية. فكان ﷺ يجتمع بالوافدين ويحدثهم عن الدّين الحقّ، ويدعوهم إلى الإسلام.

يأتي قبيلةً، قبيلةً، ويقول لهم: «يا بَنِي فلان، إني رسول اللهِ إليكم، آمركُمْ أنْ تعبدُوا اللهَ، ولا تشركوا به شيئاً، وأنْ تخلَعُوا ما تعبدون من دونِه..» وكان أبو لهب يتبعه ويقول لهم: فلا تطيعوه ولا تسمعوا له..

ولّما جاءَ سوقَ ذي المَجَاز، فقال: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلاّ الله تُفْلحُوا.. فإذا أبو جهل يقذفه بالتراب، ويقول: يا أيها الناس لا يصدنّكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

وكانت القبائل تجامِلُ قريشاً، فيُعْرِضوا عن السماع لرسول الله ﷺ.

وكانت قريش تصوّر للناس أنّ كل واحد من القبائل الأخرى إذا أسلم لمحمّد فهو عدوّ لقريش.

فكان الأمر كمباراة: رسول الله ينشط في الدعوة ويبذل جهده في إسماع الناس وإقناعهم بالحق. وقريش تهدّدهم، وتحول بينهم وبين النبيّ ﷺ.

ومرّةً قدم مكة الطُّفَيْلُ بن عمرو الدّوسي، وكان سيداً في قبيلته مُطَاعاً، فاجتمع بِهِ كبراء قريش، وحذّروه من رسول الله ﷺ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه.

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتّى قرّرت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه، حتى حشوتُ أُذُنَيَّ قُطْناً لكي لا أسمعه، أو يبلغني شيء من قوله.

وحين غدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلّي عند الكعبة فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي، واللهِ إنّي لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قَبِلتُهُ، وإن كان قبيحاً تركته. فمكثْتُ حتَّى إذا انصرفَ رسولُ الله إلى بيتِه دخلتُ عليه.

وقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوّفونني أمرك، حتى سددْتُ أذنيّ بقُطْنٍ لئلاّ أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولاً حسناً. فأعرض عليّ أمرك.

قال الطفيل: فعرض عليّ ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا واللهِ ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

وانصرفت إلى قبيلتي فعرضت عليهم ما سمعت فأسلم نحو ثمانين بيتاً، فقدمت بهم على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة فيما بعد.

الذين كان لهم أولاً شرفُ البيعةِ هم الأنصار، أي أهل المدينة المنورة، التي كان اسمها (يثرب) وكان يسكنها قبيلتان (الأوس والخزرج) وإلى جوارهم ثلاث قبائل يهوديّة (بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع) وهُم الذين يُشعلُون نار القتال بين الأوس والخزرج دائماً.

وكان اليهود يتطاولون على القبيلتين ـ بما عندهم علمٌ من الكتاب ـ ويهدّدونهم قائلين: إنَّ نبياً سيبعث الآن قد أظلّ زمانُه، نتبعه، فنقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرَمَ.

فمن أجل ذلك كان الأوس والخزرج يترقّبونَ ظهور هذا النبيّ، ويتمنَّون لو سبقوا اليهود إليه. ولما كان الموسم، خرج جماعة من الخزرج إلى مكة، فسمعوا رسول الله ﷺ يعرض دعوته على القبائل، فنظروا إليه فقالوا: واللهِ إنه لهو النبيّ الذي توعّدُكم به يهود، فلا يسبقُنَّكُم إليه.

فما كاد رسول الله ﷺ يكلّمهم ويعرض عليهم دينه، حتى آمنوا به وصدّقوه. قالوا له: إنا تركنا قومنا، وهم على عداءٍ وقتال متواصل مع أبناء عمومتنا (الأوس والخزرج قبيلتان عربيتان أصلهما واحد) فعسى أن يجمعهم الله

بك، وإن يجمعهم الله بك، فلا رجلَ أعزّ منك، ووعدوه الموسم من العام المقبل، ثم انصرفوا راجعين إلى يثرب وقد آمنوا وصدّقوا.

فلمّا قدموا المدينة (يثرب) دعوا قومهم إلى الإسلام، وأخبروهم برسول الله ﷺ، فصار الناس يدخلون في هذا الدين أفواجاً.

البيعةُ الأولى:

فلما كان العام المقبل، جاء من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلاً واجتمعوا بالنبي ﷺ عند العقبة الكبرى (مكان في منى) فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، وطلب إليهم أن يبايعوه على دعوة الإسلام، فبايعوه.

فسميت هذه البيعة (بيعة العقبة الأولى) وكانت في السنة الثانية عشرة من البِعْثَةَ. وكان مضمون البيعة، ما يلي كما أخبر بها واحدٌ منهم، وهو عبادة بن الصامت فقال: «بايعنا رسول الله ﷺ، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلِنا، ولا نعصيه في معروفٍ».

فلما أرادوا الانصراف بعث معهم رسول الله ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَيْر، وأمره أن يُقْرِئَهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

وسافر مصعب، ونزل على بني النجار عند أسعد بن زرارة. فتعاون أسعد ومصعب على تبليغ الدعوة إلى الله، ولم يقعدا عنْ نشرها أبداً، حتى

لم يَبْقَ دارٌ من دُوْرِ الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون، ونساء مسلمات. والحمد لله على ذلك.

البيعة الكبرى:

يحدّثنا أحدُ رجال البيعة، كعب بن مالك قائلاً: خرجنا مع حُجَّاجِ قومنا، حتى قدمنا مكة، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق (أيام عيد الأضحى).

فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رِحَالنا، حتى إذا مضَى ثُلُثُ الليلِ، خرجنا ميعاد رسولِ الله ﷺ، نتسلّل تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِيْنَ (القطا نوع من الطيور) حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا.

فاجتمعنا في الشِّعْبِ (فسحة من الأرض يحيط بها تلال) ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، والعباس على دينِ قومِه، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له.

فلمّا جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معاشر الخزرج والأوس، إنّ محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، وحميناه من أذاهم، ودافعنا عنه كيدهم. . .

فهو في عزٍّ من قومه، ومنَعةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم

واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك.

وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فَدَعُوه، فإنه في عزٍّ ومَنَعَةٍ من قومه وبلده.

فقال البراء بن معرور، وكان سيداً في قومه: إنا ـ والله ـ لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مُهَجِنا دون رسول الله ﷺ.

فتكَلَّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فنحن نبايعك. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العُسرِ واليسرِ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة. فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنَا[1].

فَبَايِعْنَا يا رسولَ الله، فنحنُ واللهِ أبناء الحروبِ وأهلُ الحلقةِ (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر.

وقال له الهيثم بن التيهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حِبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا..؟ فتبسم رسولُ اللهِ ﷺ وقال: بل الدَّمَ الدَّم، والهَدْمَ الهدْم،

---

[1] الأُزُر: جمع إزار، كناية عن المبالغة بالدفاع عن الرسول.

أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. . .

ثم قال ﷺ: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاءَ.

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. فقال ﷺ للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. فقالوا: نعم.

وبسط رسول الله ﷺ يده فبايعوه.. ثم قال رسول الله ﷺ: ارْفَضُّوا إلى رحالكم. أي ارجعوا، فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا فيها حتى أصبحنا.

كانت هذه البيعة هي بيعة العقبة الثانية، وكانت أخطرَ حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية.

فانفتحت أمام المسلمين أبواب الآمال، وأحسّوا بعدها بما يحس به المكروب إذا وجد الفرج بعد الضيق، والأمل بعد اليأس، والأمن بعد الخوف، فلما تمت هذه البيعة بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار امتلأت قلوبهم بالأمل، وأيقنوا أن نصر الله قريب، فجعلوا يتسابقون في الهجرة إلى مدينتهم، فارّين بدينهم إلى الله تعالى.

وكان بعد البيعة الكبرى حدث خطير جداً وهام هو: الهجرة النبوية فالجهاد في سبيل الله على قدمٍ وساق.

الفَصْلُ الثَّانِي

السنتان الأولى والثانية
بعد الهجرة

« ما بدأ رسول الله ﷺ حرباً قط، إذْ كان حريصاً أن لا يراق دمٌ إنسانيٌّ، فهو نبيّ الرحمةِ. ولكن إذا كانت لا محالةَ واقعةٌ كان رجلَها الأوّل، فهو نبيّ الملحمَةَ. لقد كان عظيماً في رحمته بالناس، عظيماً في استعداده للحرب، عظيماً في خططه، عظيماً في تحقيق النصر واستثماره»[1]، ولقد أوحى الله تعالى إليه:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. «وتمشّياً مع توجيه الوحي وسياسة الواقع، وحفاظاً على حقِّ الله وحق الحياة، درّبَ النبيُّ ﷺ رجاله على فنون الحربِ، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعدَّ السعي في هذه الميادين خطوات إلى أجلِّ القُرَبِ وأقدسِ العبادات، لعله بذلك يفلُّ شوكة الكفر ويكسر عن المسلمين أذاه»[3] قال الله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤] فما إن استقرّ أمرُ المسلمين في المدينة حتى نشبت الحروب بين الحق الذي يمثله محمدٌ ﷺ وصحبه، وبين الباطل الذي يمثله المشركون واليهود، فوقعت الوقائع، وبُعِثتِ السّرايا، وتوالت الغزوات.

إنكم تعلمون من قصص السّيرة النبويّة أنَّ النبيَّ و صحابتَهُ المهاجِرينَ، قد

---

[1] في التاريخ الإسلامي / د. شوقي أبو خليل ص٥١/ .

[3] فقه السيرة للغزالي / ص٢٠٩/ .

استقرُّوا في المدينةِ المنوَّرة، بعْدَ أنْ هجَّرهم الكفّارُ من مكّة، و نهبوا أموالَهم، و اغتصبُوا دُورَهُم، و سلبُوا منهم ممتلكاتهم

و شرَّدوهم من البلَدِ الحَرَامِ، فعاشُوا في أزمة ماليَّةٍ، و أصابَهُمُ العَوَزُ.

و مع هذا فإنَّ المُشرِكِينَ في مكّة و في غيرها ما زالوا يتربّصون بهم، و يكيدون لهم .

و لهذا كان النبيُّ ﷺ حذِراً، و قد أمرهُ الله تعالى أن يستعدَّ للمواجَهَةِ، إذا تطلَّب الأمر، فقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾.

و قال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾.

فكان النبيُّ و صحابته على أهبة الاستعداد لأيِّ لقاءٍ مسلَّحٍ مع الكفار .

و جاء القرآن الكريم يأذن لهم بالقتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

و الإذن للمسلمين بالقتال، يعني السَّماحَ بالجهاد، الَّذي شَرَّعهُ اللَّهُ تعالى، و هو أشرف أنواع القتال، لأنه لحماية الحقِّ، و ردِّ المظالم، و قمع العدوان، و كسر الجبابرة.

متى بدأ اللِّقاء المسلَّح بين المسلمين و أعدائهم المشركين؟

ما كاد يستقر النبيُّ ﷺ، و صحابته في المدينة، حتى بدأت المعارك الحربية بينه و بين الوثنية التي تمثِّلها قريش، و مَنْ والاها من قبائل العرب.

قال المؤرِّخون: كلُّ معركة بين المسلمين و المشركين قد حضرها النبيُّ ﷺ تسمَّى (غزوة) و التي لم يحضرها تسمَّى (سَرِيَّة).

و لقد بلغت الغزوات سبعاً و عشرين غزوة، و السَّرايا ثمانية و ثلاثين سريةً، سأَرويها لكم جميعها إن شاء اللَّهُ تعالى.

بدأت مغازي رسول اللَّه ﷺ و سراياه، فور تثبيت أسس الدولة الإسلامية بدأت صراعاً ضدَّ الوثنيَّة بشنِّ حروبٍ صغيرةٍ متقطِّعةٍ، ضدَّ القَوافل و المواقع، التي تتبع للمشركين، استَهدَفَ المسلمون بها: إرباك قريش وإضعافها، و تحطيمَ معنوياتِ المشركين، وضربَ نشاطهم الاقتصادي؛ وهدفُوا أَيضاً للحصول على موردٍ للتموين و التسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان يعاني منها المسلمون في مطلع الهجرة؛ وكان من أهدافهم أن ينذروا أعداء الدولة الناشئة في الداخل والخارج بأَنَّهم قادرون على التصدِّي لأيِّ عُدوانٍ ضدَّ الإسلام.

ما أوَّل غزوة قامت بين أهل الحق (المسلمين) و أعدائهم أهل الباطل (المشركين)؟

غزوة ودَّان

و يقال لها غزوة الأبواء. و هي قريةٌ على الطريق من المدينة إلى مكة.

خرج بها رسول اللّهِ ﷺ في صفر السنة الثانية للهجرة، واستخلف على المدينة سَعْد بن عُبَادة حتى بلغ ودَّان، فالتقى بني ضَمْرة بن عبد مناة بن كنانة لكنه لم يلقَ حرباً، فصالحهم وعقد معهم على ألاَّ يغزوه بنو ضمرة و لا يغزوهم و لا يكثِّروا عليه جمْعاً، و لا يعينوا عدواًّ.

سريّة

ثم رجع ﷺ و من معه إلى المدينة، و أقام بها إلى مدة شهرين، فبعث عمَّه حمزة بن عبد المطَّلب في (سريَّة) إلى ساحل البحر الأحمر، تتكوَّن من ثلاثين راكباً من المهاجرين. فلقيَ أبا جهْلٍ في ثلاثمائة راكبٍ من كفارُ أهل مكة، كانوا في قافلةٍ تجاريَّةٍ لهم، لكنه لم يقع قتالٌ بينهما لأنَّ مجدي بن عمرو الجُهَنِيّ حجز بينهم.

فتصالح الفريقان على يديه و لم يكن بينهم عراك.

سريّة

و بعث رسول اللّهِ ﷺ في هذه المدة أيضاً، ابن عمِّه عُبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين في (سريَّةٍ) حتى بلغ رابغ، (وهي قريةٌ قريبةٌ من ساحل

البحر الأحمر)، فلقيَ بها جمعاً من قريشٍ عليهم عكرمة بن أبي جَهْل، فلم يكن بينهم قتال إلاَّ أنَّ سعد بن أبي وقَّاص رُمِيَ بسهمٍ فكان أوَّل سهم رمِيَ به في سبيل اللَّه، ففي هذه السريَّة لم تقع بين الطرفين سوى مناوشاتٍ بالسهام دون أن يشتبكا في قتالٍ مباشر.

غزوة بواط

ثم خرج رسول اللَّهِ ﷺ في ربيع الآخر و استخلف على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بواط (وهي جبالٌ على بعدٍ من المدينة المنوَّرة) و قد اعترض فيها رسول اللَّهِ ﷺ لقافلةٍ تجارية لقريش، ثم رجع و لم يلقَ حرباً.

غزوة ذات العُشَيْرة

و في جمادى الأولى خرج رسول اللَّه ﷺ غازيا، فكانت (غزوة العُشَيْرة) واستخلف على المدينة أبا سَلَمَة بن عبد الأسد و أخذ على طريق العُشَيْرة، قرب يَنْبُع خرج ليعترض قافلة تجارية لقريش، لكنه لم يقع لقاءٌ، فأقام هناك بقية جمادى الثانية ووادع فيها بني مُدْلِج (عقد صلحاً) ثم رجع إلى المدينة و لم يلقَ حرباً.

غزوة سفوان

و حدثت بعدها (غزوة سفوان) لما انصرف الرسول ﷺ من العُشَيْرة، لم يقم بالمدينة إلاَّ عشر ليالٍ فأغار على إبل و أغنام أهل المدينة كُرْزُ بن جابر الفهري.

فخرج رسول اللَّه ﷺ في طلبه، حتى بلغ وادياً يقال له: سَفْوَان، في ناحية بدر و لم يدرك كُرْزاً الفهريَّ، فرجع إلى المدينة.

سريّة

و قد كان رسول اللّهِ ﷺ، بعث (سريّةً) بإمرة سعد بن أبي وقّاص في طلب قافلةٍ تجاريةٍ لقريش، و أمَرهُ أن لا يُجاوزَ الخرّار، و هو مكان في طريق المدينة، فبلغ إلى الخرَّار ثم رجع إلى المدينة و لم يلقَ حرباً.

سريّة

و بعدها بعث عبد اللّه بن جحشٍ في (سريَّةٍ) و زوَّدَهُ بكتابٍ مغلَّفٍ و أمره أن لا ينظر فيه، إلا بعد مسيرة يومين.

ففعل، فلمّا فتحه و قرأه وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة - موضعٌ قريبٌ من مكة - بين مكة و الطائف فترصَّدْ بها قريشاً، و تعلَّمْ لنا من أخبارهم».

فلما قرأ الكتاب، قال: سمعاً و طاعةً ثم أخبر عناصر السرية، و قال لهم: من شاء أن يستشهد في سبيل اللّه فليذهب معي، و من كره فليرجعْ.

فقالوا: كلُّنا نحب و نرغب، و ما منا أحدٌ إلاَّ و هو سامعٌ و مطيعٌ لرسول اللّهِ ﷺ و سلكوا طريقهم حتى أتوا نخلة. فمرَّت بهم تجارة لقريش

فالتقى الفريقان و كان الظَّفرُ للمسلمين فساقوا الإبل المحمَّلة إلى المدينة وأخذوا الأسيرين معهم. و هي أول غنيمةٍ غُنِمت في الإسلام، وأول أسيرين.

غزوة بدر الكبرى

إن النبي ﷺ بغزواته و سراياه التي تقدَّمت على غزوة بدر الكبرى قد حقق منجزات هامة منها: استطاع المسلمون التعرُّفَ على قبائل المنطقة ومصالحة بعضها، وأثبتوا لأنفسهم أنهم أقوياء يقدرون على حماية دينهم، و هددوا العدوَّ بالحصار الاقتصادي.

و هناك عاملٌ قويٌّ يحفزهم أكثر، هو أن المسلمين المهاجرين جرَّدتهم قريش من أموالهم، حتى أن أحدهم لا يجد تَمرةً واحدةً يسدُّ رمَقَه، و قد يقع الواحد منهم على الأرض لا تحمله رجلاه من شدة جوعه.

و ظلُّوا على هذه الحالة حتى جاء رسولَ اللّهِ ﷺ خبرٌ في رمضان (٢ هـ): أنَّ عِيْراً (قافلة محملة بالبضائع و التجارة) لقريش فيها أموالٌ كثيرةٌ، مقبلةٌ من الشام إلى مكة يرأسها أبو سفيان بن حرب.

فدعا رسول اللّهِ ﷺ المسلمين إلى تلك العِير، وأمر بالخروج فوراً ولم يهتم بتجميع المسلمين للخروج، لأنه أراد العير، ولم يعلم أنه يلقى حرباً.

فكان معه سبعون جملاً، و فَرَسان، فكان لكل خمسةٍ منهم جملٌ يركبونه بالتناوب، إذ كانت عدة من خرج معه (٣١٤) رجلاً، أكثرهم من الأنصار.

و كان أبو سفيان حين اقترب من الحجاز، يسير حذِراً، تسبقه جواسيسه فأخبروه أنَّ محمداً قد استنفر أصحابه للتعرُّض للقافلة فانتبه و احترسَ، و استأجر رجلاً ليذهبَ إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم، و يخبرهم أن محمداً عرض للعِير في أصحابه، و اسم ذلك الرجل ضَمضَم الغِفَاريُّ. فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة، و صرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمةَ، يا معشر قريش، أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمَّد، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث.

فتجهَّز الناس سراعاً، وخرجوا في ذلك النفير، و لم يتخلَّف من أشرافهم إلا أقلُّهم.

و كانوا في نحوٍ من ألف مقاتلٍ، منهم ستمائة دارعٍ (لابس للدرع، و هو قميصٌ منسوجٌ من حلق الحديد)، و مائة فرسٍ مدرَّعة، أي مغطَّاة بدرع، سوى دروع المشاة، و ساقوا معهم (٧٠٠) بعير، و معهم القيّان (الراقصات) يضربن بالدفوف، و يغنين بهجاء المسلمين و شتمهم، و لم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا جنوب ماء بدر (العُدْوة القصوى).

أما رسول اللّهِ ﷺ فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين (٨ رمضان سنة ٢هـ) حتى إذا كان قريباً من الصَّفراء شمال بئر بدرٍ، بعث إلى بدر لاستطلاع أخبار القافلة، حتى إذا قارب بدراً جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عِيرهم و أن العير نجت بقيادة أبي سفيان، لأنه سلك طريقاً آخر.

فاستشار النبيُّ ﷺ الناس، فتكلَّم أبو بكرٍ و عمر فأحسنا الكلام، و قال له المقداد بن عمرو: امضِ يا رسول اللَّه بما أمركَ اللَّه، فنحن معك ـ و اللَّهِ ـ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقِّ، لو سرت بنا إلى برْك الغَمَاد (موضع بعيد جداً عنهم) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه.

فقال له الرسول خيراً، ثم قال: أشيروا عليَّ أيُّها الناس. و إنما كان يريد الأنصار لأن العدد فيهم و لم تكن بيعتهم إلاَّ على أنهم يمنعونه ما دام في ديارهم، فكان يتخوَّف أنهم لا يرون نصرته إلاَّ على من دهمه في المدينة من عدوِّه، و ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍ خارج ديارهم.

فقال له سعد بن معاذ: و اللَّهِ لكأنك تريدنا يا رسول اللَّه؟!

قال أجل، فقال له سعدٌ: قد آمنَّا بك و صدَّقناك و شهدنا أن ما جئت به هو الحقُّ، و أعطيناك على ذلك عهودنا و مواثيقنا على السمع و الطاعة، فامضِ يا رسول اللَّه لما أردت، فنحن معك فو الذي بعثك بالحقِّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ و ما نكره أن تلقى بنا العدوَّ غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، لعلَّ اللَّه يريك منا ما تقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة اللَّه.

فسُرَّ و ابتهج النبيُّ بقول سعْدٍ، و نشَّطه ذلك.

ثم قال سيروا وابشروا، فإنَّ اللَّه قد وعدني إحدى الطائفتين، و اللَّهِ لكأنِّي أنظر إلى مصارع القوم.

و انطلقوا حتى اقتربوا من بئر بدرٍ، و علم الرسول أن قريشاً وراء وادي بدرٍ.

و كان معسكر النبيِّ أقرب إلى آبار بدر من المشركين، فغوَّر الآبار كلَّها (أي ردمها) ليمنع الكافرين من الاستفادة منها. سوى بئرٍ واحدٍ، بُنِيَ عليه حوضٌ وملأه بالماء، ليشرب المسلمون.

ثم إن سعداً قال للرسول: يا رسول اللَّه، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ثم نلقى عدونا، فإنْ أعزَّنا اللَّه، و أظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببناه، وإنْ كانت الأخرى، جلسْتَ على ركائبك (ما يُركَبُ عليه للسَّفر) فلحقت بمن وراءنا من قومنا ـ يقصد من بقي بالمدينة ـ فقد تخلَّف عنك أقوامٌ، يا نبيَّ اللَّه، ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم و لو ظنوا أنَّك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك، يمنعك اللَّه بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك.

فأثنى عليه الرَّسول، و دعا له بخير و أمر ببناء العريش فبُنِيَ له.

ومشى رسول اللَّه مع نفَرٍ في ميدان بدر وهو يقول: هذا مصرع فلان، و هذا مصرع فلان... أي المكان الذي يقتل فيه، و نظَّم صفوف المعركة.

و في صبيحة يوم الثلاثاء (١٧ رمضان) ابتدأت الحرب بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة، و الوليد بن عتبة، و شيبة بن ربيعة، فطلبوا من يخرج إليهم، فبرز لهم ثلاثةٌ من الأنصار، فقال لهم الكفار ارجعوا

لا حاجة لنا بكم، نطلب من بني عمنا (أي من المهاجرين). فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب، وعُبيدة بن الحارث، وعليّ بن أبي طالب. فكان عُبيدة بمواجهة عتبة، وحمزة بازاء شيبة، وعليّ بإزاء الوليد. فأما حمزة وعليّ فقَتَلا خصميهما، وأما عُبيدة وشيبة فاختلفا بضربتين، كلاهما أثبت من صاحبه، و جُرح عُبيدة رضي اللَّه عنه فأسرع حمزة و عليّ على عتبة فقتلاه.

وحُمِل عبيدة من ساحة المعركة ضعيفاً قد أثخنته الجراح و قطعت رجله. وبدأ الهجوم بين الصفوف، وانقضَّ المسلمون كأُسْدِ غابٍ، وكان ﷺ قد عدَّل الصفوف، وحثَّ على القتال ورغَّبَ في الجهاد.

وسمع عمير بن الحمام رسول اللَّهﷺ يحثُّ على القتال ويشوِّق إلى الجنة، وكان في يده تمرات يأكلهن، فقال بخٍ بخٍ أما إنه ليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء، فرمى بالتمرات وقاتل حتى قُتل.

وانكسر سيف عُكاشة بن محصن فأعطاه رسول اللَّه ﷺ جَذْلاً من حطبٍ (عصا) وقال له خذه فأخذه، فصار في يده سيفاً، بقدرة اللَّه تعالى.

ولم تطل الحرب في ذلك اليوم حتى حلَّت الهزيمة بصفوف قريش، بعد أن قُتِل سبعون منهم، فيهم جمعٌ من صناديدهم، وفيهم أبو جهل بن هشام، رأس الفتن وأُسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون.

ولمّا انتهت الموقعة أمر عليه الصلاة والسلام بجمْع الغنائم، فجُمِعت، وأمر بدفْن الموتى من المشركين ففعلوا، ثم أرسل إلى المدينة المنورة بَشيرين بالنصر

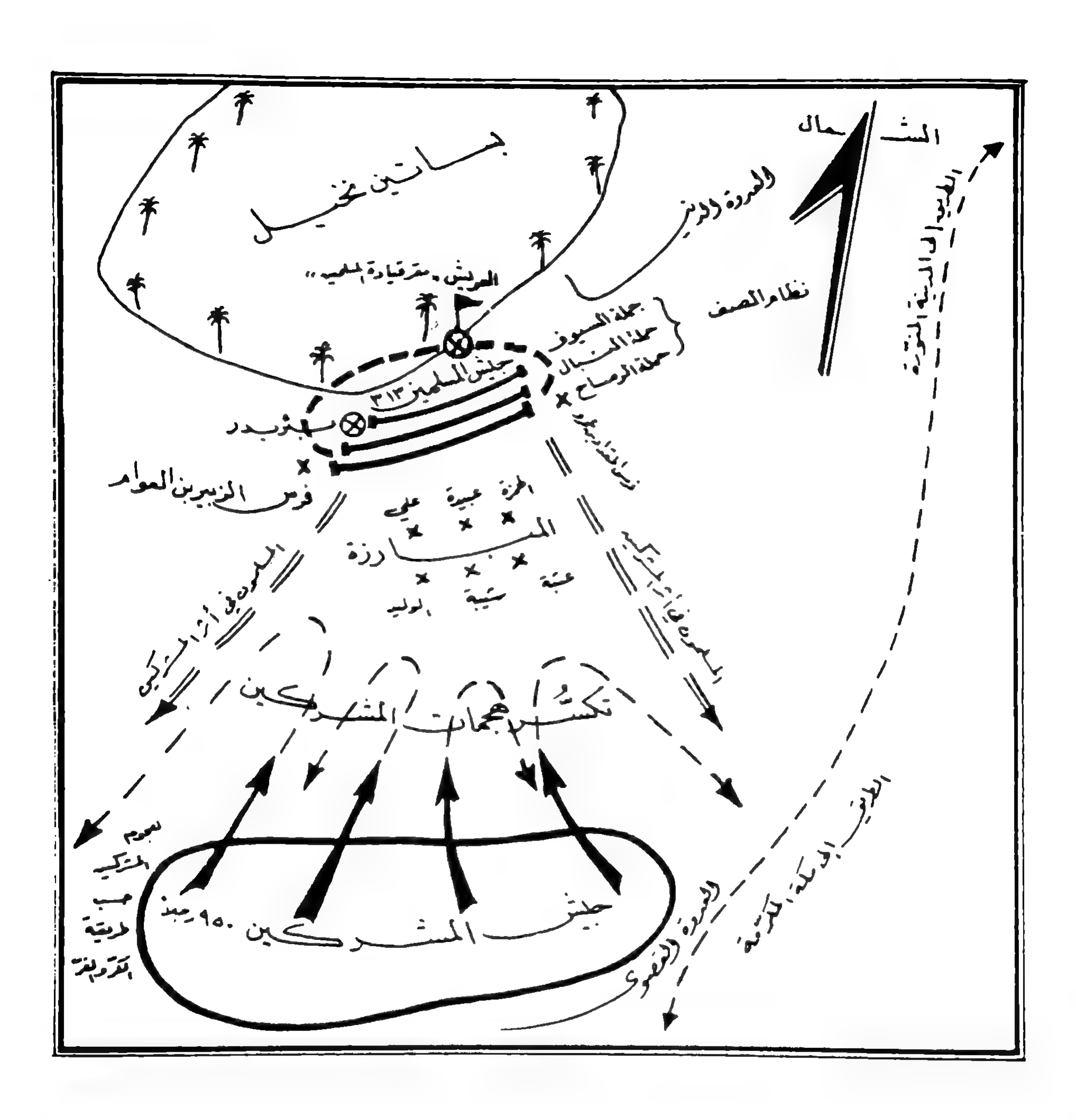
للمسلمين، فأسرعا بالبشارة. ولمَّا أقبل ﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى على أصحابه، وقال: استوصوا بهم خيراً، ثم قبِل الفداء من قريش في الأسرى.

وذلك لمَّا علمت قريشٌ بما كان أرسلت في فداء أسراها، فمن حضَرَ فداؤه أُرسِل، ومنهم منْ مَنَّ عليه بغير فداء منهم، وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلِّم عشرةً من صبيان المسلمين الكتابة.

وكانت معركة بدرٍ أعظم المشاهد، لأنَّها أوَّل معركةٍ عامةٍ تفصل بين الحق والباطل، انتصر فيها الحق، وارتفعت راية المسلمين عاليةً، رغم قلَّة عددهم، على كثرة الكافرين واستعدادهم إلى جانب نزول الملائكة ومشاركتها للمؤمنين في القتال «ليحقَّ الحقَّ ويبْطِل الباطِلَ ولو كرهَ المجرمون».

جدول بياني عن غزوة بدر الكبرى

الجيش	العدد	العُدّة		النتائج		
		السلاح	الرّكاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	٣١٧	لكل مقاتل سيف أو رمح وترس ، وإذا وجد السيف لا يجد الرمح أو الترس أو الخوذة .	٧٠ جملاً فَرَسَان	١٤ شهيد	١	-
جيش المشركين	من ٩٥٠ مقاتلاً إلى الألف	كل مقاتل يحمل عدة كاملة من سيف ودرع وخوذة وترس	٣٥٠ جملاً ٢٠٠ فرس	٧٠ قتيلاً	٧٠ جريح تقريباً	٧٠ أسير



غزوة بدر الكبرى

غزوة الكَدْر أو السويق

لم يقعد رسولُ الله ﷺ، بَعْدَ مُنْصَرفه، عَنْ بدرٍ إلاّ سَبْعَةَ أيّامٍ، ثمّ خرج بنفسه الكريمةِ في (غزوة الكَدْر) يريدُ بني سُلَيم، واستخلفَ على المدينةِ ابنَ أمّ مكتوم، وانطلقَ حتّى بلغَ ماءً منْ مياه بني سُلَيم، يقالُ لهُ الكَدْر، وهوَ موضعٌ قرْبَ المدينةِ المنوّرةِ، فأقامَ عليهِ ثَلاثَ ليالٍ، ثمَّ رجَعَ ولمْ يلْقَ حَرْباً، فأقامَ بها بقّيَةَ شوّالٍ، وذي القعدة.

ثمّ إنَّ أبا سفيان، لما انصرفَ المنهزمونَ من المشركين يوم بدر، حلَفَ أَنْ يغزوَ رسولَ الله ﷺ في عقر المدينة، ونذَرَ ألاّ يَمَسَّ رأْسَهُ زوجَتَهُ حتَّى يضْرِبَ مُحَمّداً ضَرْبَةً قاصمَةً.

فخرجَ في مائتي راكبٍ منْ قُرَيْش، لينفّذَ يمينَهُ، وأتى موضعاً بالمدينة يُدْعَى العُرَيض، فحرقَ نخلاً، وقتلَ رجُلاً منَ الأنصارِ وحَليفاً له، كانَا في بُسْتانَيْهِمَا يزرعان، ثم كرَّ راجعاً، فَنَفَرَ المسلمونَ بقيادة رسول الله ﷺ، واستعملَ على المدينة أبا لُبَابَةَ، وحثَّ المسلمونَ السيَّرَ، حتّى بلغُوا قَرْقَرَةَ الكُدْر، ولمَّا أحس أبو سفيان ومَنْ معَهُ بلحوقِ المسلمينَ بِهِم، صارُوا، يطرَحُونَ أَزْوَادَهُمْ، الّتي أكثرهُا طعام السَّويق (وهو طعام يتّخذ من الحنطة والشعير)، يتخففون بهم من أحمالهم، طلباً للنَّجاةِ، فَأَخَذَها المسلمونَ، ولهذا سميت (غَزْوَةُ السَّويق).

الفصل الثالث

السنة الثالثة بعد الهجرة

غزوة غَطَفَان أو ذي أمَرّ

ولمّا رجعَ عليه الصلاة والسلام منْ غزوَةِ السَّويقِ، أقام بالمدينة بقيَّةَ ذي الحجة، ثمَّ غزَا نجداً يريدُ غَطَفَانَ، واستخلف على المدينـةِ عثمـانَ بـنَ عفّـان، فأقام بنجدٍ شهر صفر كله، ولمْ يلْقَ حَرباً، ثم انصرف إلى المدينةِ.

وتسمى (غزوة غَطَفَان ـ أو ـ ذي أمَرّ) اسم الموضع الّذي أقامَ فيه.

غزوة بُحران

فلبثَ ﷺ في المدينةِ شهرَ ربيع الأول منَ السَّنَةِ الثالثة، ثـم قـاد كتيبـة من المسلمين يريدُ قريشاً، حتَّى بَلَغَ بُحْران، مكاناً بالحجاز، وأقامَ في ناحيةِ الفرَع شهْراً، ولم يَلْقَ حرباً، ثم انصرف إلى المدينة، وتسمى هذه (غزوة بُحْران ـ أو ـ الفرَع).

ويقالُ: إنَّه كانَ يريدُ بني سُليم، إذْ بلغه أنّهم تجمعوا للإغارةِ على المدينة فرأى أن يعاجلهم فخرج إليهم.

غزوةُ بني قَينُقاع

وأمّا الأخطر منْ هذه الغزواتِ قَبْلَ أُحُدَ (غزوةُ بني قَينُقاع) وهـم قبيلـةٌ يهوديَّةٌ كانتْ تسكُنُ في أطراف المدينَةِ.

ورسولُ اللهِ ﷺ لمّا قدمَ المدينةَ وادَعَهُم (صالحهم) وكتَبَ كتاباً في ذلـك،

وشَرَطَ عليهم فيما شَرَطَ، أن لا يظاهروا عليه أَحَداً، أَيْ لا يعاونوا ولا ينصُرُوا أحداً على رسول الله ﷺ، لكنّهم (أي بنو قينقاع) كانوا قد نَقَضَوا العَهْدَ بينهم وبينَهُ ﷺ، وذلكَ في حادثَة المَرْأَة المُسْلمَة الّتي ذَهَبَتْ إلى سوق بني قينقاع، فجلست في حاجة لها عنْدَ صَائغٍ منْ صاغتهم، فانتهك أَحَدُ اليهودِ حرمَتَها، بأَنْ كَشَفَ ثوبَها منَ الخَلْفِ دُوْنَ أَنْ تَشْعُرَ، فاندفع أحد المسلمين إلى اليهودي فَقَتَلَهُ، فتجمَّعَ يهود بني قينقاع فقتلوا المسلم.

وتنادى المسلمون واليهودُ، وأوشك الأمر أن يكون مذبحة، لولا رسول الله ﷺ إذ أسرع على إطفاء هذه الفتنة.

لكن اليهود لم يتخلوا عن حبهم في نشر الفتن وإفساد الحياة.

فلمّا قدمَ منْ بَدْرٍ يحملُ شَرَفَ الانتصار على رؤوس الشرك، أتاه بنو قينُقَاع، فقالوا لَهُ: يا مُحَمّد، لا يغرّكَ منْ نفسك أَنْ انتصرتَ، فإنَّ قريشاً لا علم لهم بالحَرْبِ، أَمَا وَالله لَوْ حَارَبْتَنَا لَعَلمتَ أنَّ حربنا ليس كَحَرْبِهِمْ، وإنَّا لنحن أصحاب القوة والمراسِ في الحُرُوْبِ.

وبذلك كانوا خائنينَ، نقضوا العهد، وبدأوا بخيانتهم أن اعتدوا على امرأةٍ مسلمة تعدياً معيباً، فشدّ رسول الله ﷺ عليهم وحاصرهم في حصونهم، خمسةَ عشرَ يوماً، حتَّى نزلوا على حُكْمه، بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعبَ.

فشفعَ فيهم عبد الله بن أبي بن سلُوْل، وألح على رسولِ اللهِ، وتعلق به

حتى أدخل يدهُ في جيبِ درعه، فقال: دعْني، فقال: والله لا أرسلك حتى تُحْسِنِ إليّ فيهم، فشفعه رسول الله ﷺ فيهم وحقَنَ دماءهم، وحكم فيهم أَنْ يجلوا عن المدينةِ، ويتركوا أموالَهم، فجلوا عنها ولحقوا بأَذْرِعات. (في بلاد الشَّام).

سريّة

وبعد غزوة بني قَيْنُقَاع، بعث رسول الله ﷺ (سريّة) إلى كعب بن الأشرف اليهوديّ، الذي آذى رسول الله ﷺ والمؤمنينَ، وذلكَ لمّاً انتصرَ المسلمونَ ببدرٍ، قال كعب: والله لئنَ كانَ مُحَمَّدُ أصابَ هؤلاءِ القَوْم (يقصدُ قريشاً، أي انتصر عليهم) لبطنُ الأرضِ خيرٌ مِنْ ظهرهَا، وصارَ يحرضُ على رسولِ اللهِ، ويقول الأشعارَ في نساءِ المسلمينَ، ويرثي قتلى المشركينَ.

فأرسلَ إليهِ ﷺ نفراً منَ الأنصار فقتلوهُ.

غزوة أُحُد

أما الحال في قريش فإنّهُ أصيبَ يومَ بدر مِنْ قريش مَنْ أصيْب، ورجع المنهزمونَ إلى مكة، فجاء جماعة من قُرَيش ممّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوتهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له شركة في تلك التّجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكُم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا

المالِ على حربهِ، فلعلنا ندرك ثأرَنَا بِمَنْ أصابَ منَّا، ففعلُوا.

واجتمعتْ قريشٌ بأحابِيْشِهِا، ومَنْ أعانها من قبائِلِ كنانَةَ، وأهل تهامَة. ودعا جبيرُ بن مطعم غلاماً لهُ حبشياً يقالُ لهُ وحْشِي، يقذفُ بحربةِ لهُ، قذفَ الحبشةِ، قلّمَا يخطئُ بِهَا، فقال لهُ: أخرجْ مع النّاس، فإنْ قتلتَ الحمزةَ عمَّ محمدِ بعمّي طعيمةَ، فأنتَ حرٌّ، لأنَّ الحمزةَ هو الّذي قتلَ طعيمةَ في بدرٍ.

فخرجتْ قريشٌ بعددهَا وعدَّتـها، بحدِّها وجَدِّها، وأحابيشـها، أي بنو المصطِلق وبنو الهون، ومن تبعها منْ كنانةَ وأهل تهامَة وخرجوا معهُم بالظّعن، أي الهوادج التي تركبُها النساءُ، حتّى بلغوا قناةً قربَ أُحدَ.

أمّا رسولُ الله ﷺ بعد غزوتي بُحْران، وبني قينقاع، رأى في منامه: أنَّ في سيفهِ ثلمةً، أيْ خللاً وكسراً، وأنّ بقراً له تذبحُ، وأنهُ أدخلَ يدهُ في درعٍ حصينةٍ، أي قوية منيعة، فأوّلَهَا: أن نفرا منْ أصحابه يقتلون، وأنّ رجلاً من أهلِ بيتهِ يصابُ، وأنَّ الدرعَ الحصينةَ المدينةُ.

فلمّا سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ بنزولِ الكفارِ قربَ المدينـة عزم رسول الله ﷺ على التحصن بالمدينة دون الخروج إليهم، فإنْ قربوا منها قاتلوهم على أفواه الأزقة، ووافقهُ بعضُ الشيوخِ، لكنَّ أكثرَ الشبابِ الّذين لم يشهدوا بدراً تحمّسوا للخروجِ، لينالوا شرفَ الانتصارِ أو الشَّهادة.

فلمَّا رأى رسولُ اللهِ ﷺ عزيمَتَـهم، دخلَ بيتهُ فلبس (لأمتهُ) أي عدَّة الحرب، وخرج إليهم وذلك يوم الجمعةِ.

وندمَ قومٌ من الذين ألحوا في الخروج، وقالوا: يا رسولَ الله، إن شئت فارجع؟ فقال رسولُ الله، ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍ إذا لبسَ لأمتَهُ أن يضعها حتى يقاتل» أو يحكم الله بينه وبين عدوّه.

فخرج رسولُ اللهِ ﷺ في ألف منْ أصحابه، واستخلف ابنَ أمِّ مكتومٍ على الصلاة لمن بقيَ بالمدينة منَ المسلمينَ.

فلمّا سار رسولُ الله ﷺ نحو أحدَ، انفصلَ عنهُ عبد الله بنُ أبيّ بنُ سلول بثلثِ الناسِ، غضباً منْ رسولِ اللهِ لأنهُ أطاعَ الشبابَ وخالفهُ.

فلمّا انصرف لحقهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرو، وذكرهم اللهَ والرجوعَ إلى رسولِ اللهِ، فأبوا، لأنّهم منافقون، وما خروجه ثمّ انفصاله إلا ليقلقَ أعصابَ المُسْلمينَ وهذا منْ أعمالِ النّفاق.

ونهض رسولُ اللهِ بالمسلمين بـ(٧٠٠) مقاتل، فأشارَ عليهِ بعض الأنصار، أَنْ يستعينَ باليهود. فأبى أن يستعين بمشركٍ على مشرك، وانطلق ﷺ بهم حتّى نزلَ ساحةَ أحد، في جانبِ الجبل، فجعل ظهر جيشه إلى الجبل ونهى عن القتال حتى يأمرهم.

وكانت قريش قد سرحت الجمال والخيل في زروع المسلمين، جوار أحد.

وبعد أنّ هيّأ رسولُ اللهِ ﷺ الجيشَ للقتالِ جعلَ خمسينَ رامياً على الجبلِ، وأمّرَ عليهمْ عبد الله بن جبيرْ، فرتبهم خلفَ الجيشَ، وأمرهم بأن

ينضحوا المشركينَ بالنبلِ، لئلاّ يأتوا المسلمينَ من ورائهم، وإنْ كانتْ الحربُ لنا أو علينا فاثبتوا مكانكُم، كي لا نؤتى منْ خلفنا، ودفعَ اللواءَ (الرّايةَ) إلى مُصْعَب بن عميْر.

واصطفّت قريش، وهم ثلاثةُ آلافِ رجُل، ومعهم مائتا فرسٍ، وكانَ على ميمنةِ الخيلِ خالد بنُ الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهلٍ، ومعهم مائةُ رامٍ وكان شعارُ المسلمينَ (أمتْ، أمتْ).

وقبلَ أنْ تدورَ رحى الحربِ يخرجُ رسولُ اللهِ ﷺ منْ مقرِّ القيادة، وقدْ جّرد سيفهُ، قائلاً: منْ يأخذ هذا السيف بحقهُ؟

فيقولُ أبو دجانة: ما حقهُ يا رسولَ اللهِ؟

فيجيبه: أن تضربَ بهِ العدوَّ حتّى ينحني، فقال أنا آخذه بحقِّه.

فيلقي به إليه، فيتناوله أبو دجانة كالليث، ويخفقه خفقاً، ويهزهُ هزاً في حماسةٍ وهوَ ينشدُ متبختراً:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفحِ لدى النخيلِ

أنْ لا أقومَ الدهرَ في الكبولِ أضربُ بسيفِ اللهِ والرسولِ

ثم يخرجُ عصابةً حمراءَ، يعصبُ بها رأسه، ويتبختر بينَ الصفوفِ. فيقولُ الصحابة: إنها شارةُ الخطرِ، وإن أبا دجانة الآن نشوان، لا يرى إلا واحدة من اثنتين: الشهادة أو النصّر.

ونظر إليه رسول الله ﷺ، فقال: «إنها لمشيةٌ يبغضها اللهُ إلاّ في مثلِ هذا الموطنِ».

ويتحركُ الفريقانِ للقتال، فيصيح أبو سفيان: يا بني عبد الدار، إنكم وليتم لواءنا يومَ بدر، فأصابنا ما قد رأيتهم، وإنّما يؤتى النّاس من قبل راياتهم، إذا زالت زللوا، فإمّا أن تكفونا ولواءنا، وإمَّا أن تخلوا بيننا وبينه فنحرسَه.

وتبدأ المبارزةُ، فخرج من صفِّ المشركينَ أبو عامر المعروف بالراهب، الّذي ترهّبَ قبلَ الإسلام، فلمَّا جاءَ الإسلام غلبَ عليه الشقاء فانضم للكفّار، فلما خرج للمبارزة قال: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فردّ عليه المسلمونَ: لا أنعم اللهُ بك يا فاسقِ.

وهجمَ الحمزةُ رضي الله عنه على طلحةَ حاملِ لواء المشركينَ، فيقطعُ يده اليمنَى، فيتناول اللواء باليسرى فيقطعها حمزةُ، فيضمّ الرَّايةَ إلى صدره، فيعاجله الحمزةُ بضربة تقتلهُ فيسقط هو واللواء، فيصبح المسلمون: اللهُ أكبر، اللهُ أكبر...

ويهجمُ الفريقان، ويلتقي الناسُ، ودارتْ رحى الحربِ، وبرزَ أبطالُ المسلمينَ: الحمزة وأبو دجانة، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم...

يصولون ويجولون، وأبلوا بلاءً حسناً فأنزل اللهُ عليهمْ نصرهُ، وصدقهم وعدهُ، وانكشفَ العدوُّ، وتقهقروا، فكانت الهزيمة التي لا شكَّ فيها قد حلتْ بالمشركين، وصاروا جماعاتٍ متباعدة تبحثُ عن طريقة للهربِ من وجهِ المسلمينَ الأبطال، وتشتتَ المشوكونَ تشتتاً فظيعاً، وصارتْ نسوانهم يولولن بعد

ما كنَّ يغنين، وفر الرجالُ والنساء من المشركين، يلقونَ أسلحتهم وأمتعتهم، لينجوا بأرواحهم، وتخلو ساحةُ أُحُدَ منهم إما بقتل فيهم أو هربٍ. ولما رأى الرماةُ أنّ المشركين انهزموا، مالوا إلى المعسكر، وخلّوا ظهورَ المسلمين للعدوّ، فالتفّتْ خيّالةُ المشركين بقيادةِ خالد بن الوليد، حتّى جاءتْهم مِنْ خلفهم، وبعض المسلمينَ مشتغلونَ بأخذِ الغنيمةِ، فأخلتْ صفوفهم، وتفاجأوا بالطعنِ خلفَ ظهورهم، وأخذتْ لواءَ المشركين عمرةُ بنتُ علقمة الحارثية فرفعتهُ لقريشٍ فتجمّعوا عندها، وعادوا منْ هزيمَتِهم، لمّا رأوا الخللَ في صفوفِ المسلمينَ. وتكاثروا على مصعبِ بن عميْر حاملِ لواءِ المسلمينَ فقتلوهُ.

وأشاعَ رجلٌ مشركٌ أنَّ محمداً قد قتلَ، فضعفتْ عزائمُ المسلمينَ، وكانَ هذا الخبرُ شديداً على نفوس كثيرٍ منهم، فاضطربتْ أعصابُهم، وانكشفوا، فأصاب العدوُّ مِنْهُم، وانهزمَ أكثرهم، ولم يبقَ مِنَ المسلمينَ حولَ قيادتهم إلا القليلُ.

وكادَ المشركونَ أن يصلُوا إلى رسولِ الله، لولا حفظُ اللهِ وحمايتهُ لرسولهِ، ودفاعُ الأبطالِ من المسلمينَ عنهُ كأُم عمارةَ نسيبة، وأبي دجانة.

ومعَ هذا جرحَ ﷺ في وجهه، وكسرتْ بعضُ أسنانه، وهشمتُ خوذتهُ على رأسه، لكنه صبرَ وصمدَ ولم تتأثرْ أعصابهُ، بل قاتلَ ونافحَ ودافعَ حتَّى انكسر سيفهُ، وتناولَ آخر وهو يقول: اللهُ أكبر.

وصار المشركونَ يرمونه بالحجارةِ، حتَّى سقط في حفرةٍ، فأخذَ عليٌّ بيدهِ، واحتضنهُ طلحةُ، حتَّى قامَ.

وتناول الرايةَ عليٌّ، وتجمّعَ الأنصارُ، ورسولُ اللهِ يقاتلُ معهم.

وظل رسولُ اللهِ يقاتلُ مع نفرٍ مِنَ الأنصارِ والمهاجرينَ كأبي بكرٍ وعمر وعليّ وطلحة والزبَيْر والحارث بن الصمة وغيرهم، حتى اعتصمُوا إلى سفحِ الجبلِ، فتبعَهُم أبي بنُ خلف الجمحيّ، فتناولَ رسولُ الله ﷺ حربةً منْ جنبِ الحارثِ وقذف بها إلى أبيٍّ فطعنهُ بها في عنقه، فكرّ منهزماً إلى المشركينَ.

فقالوا له: ما بك منْ بأسٍ، جرحٌ صغيرٌ، فقال: واللهِ لو بزقَ عليَّ مُحَمَّد لَقَتَلَني، فكيفَ وقد وعد بقتلِي، وها أنا ذا جريحٌ بحربته، وماتَ عدو اللهِ منْ ضربة رسولِ اللهِ في مرجعهِ إلى مكة، وصار جيفةً قذرةً في محلة يقال لها: سرف، قربَ مكةَ.

وأسفرتْ أحُد عَنْ نصرٍ للمسلمينَ في بدايتها، ثمَّ انعكس الأمرُ، واستشهد عددٌ من المُسلمينَ، قد بلغ السبعينَ، منهم الحمزة الّذي ترصّده وحشيّ فضربه بحربة مسمومةٍ غدراً، ومثلتْ به هند زوجُ أبي سفيان.

وحين أرادَ أبو سفيان الانصرافَ، صعدَ الجبلَ، وصرخَ بأعلى صوته: الحربُ سجالٌ، مرةً لنا ومرة علينا، يومُ أحد بيومِ بدر.. أعلُ هبلُ (صنم يعبدونهُ).

فقال رسول اللهﷺ: قم يا عمر فأجبه، فقال: «الله أعلى وأجل لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار».

فما سبب انقلاب نصر المؤمنين إلى هزيمة في غزوة أحد؟

كان لقاء أحد درسا مؤثراً، عمّق الإيمان، لأنهم أخطأوا خطأً واحدا، وهم مجمع الفضائل والمزايا الطيبة، ومع هذا عاقبهم الله، فكان ذلك مقدمة الانتصارات الدائمة المستمرة.

لهذا فإنَّ مخالفة أمرِ القائدِ الحازمِ البصيرِ يؤدي إلى خسارة المعركة، كما حصل في وقعة أحد.

فلو أن رماة النبل الذين أقامهم الرسول خلف جيشه ثبتوا في مكانهم كما أمرهم الرسولُ لَمَا استطاعَ المشركون أن يلتفوا من حولهم، ويقلبوا هزيمَتَهم أولَ المعركة إلى نصرٍ في آخرها.

وكذلك يفعل العصيان في ضياع الفرص، ونصر الأعداء.

وقد أنذر الله المؤمنين بالعذاب إن خالفوا أمر رسولهم، فقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ثمَّ إنَّ الطمعَ المادّي أيضاً يؤدي إلى الفشلِ و الهزيمةِ، كما حصلَ في أحُد حين تركَ الرماةُ مواقفهم طمعاً في إحرازِ الغنائمِ، وتركوا تتّبعَ العدوِّ ممّا أدى إلى عودةِ العدوِّ وهجومهِ على المسلمين، فانهزموا.

ولولا ثباتُ الرسولِ ﷺ والمؤمنينَ الصَّادقينَ حوله، لما تحوّلت الهزيمةُ في

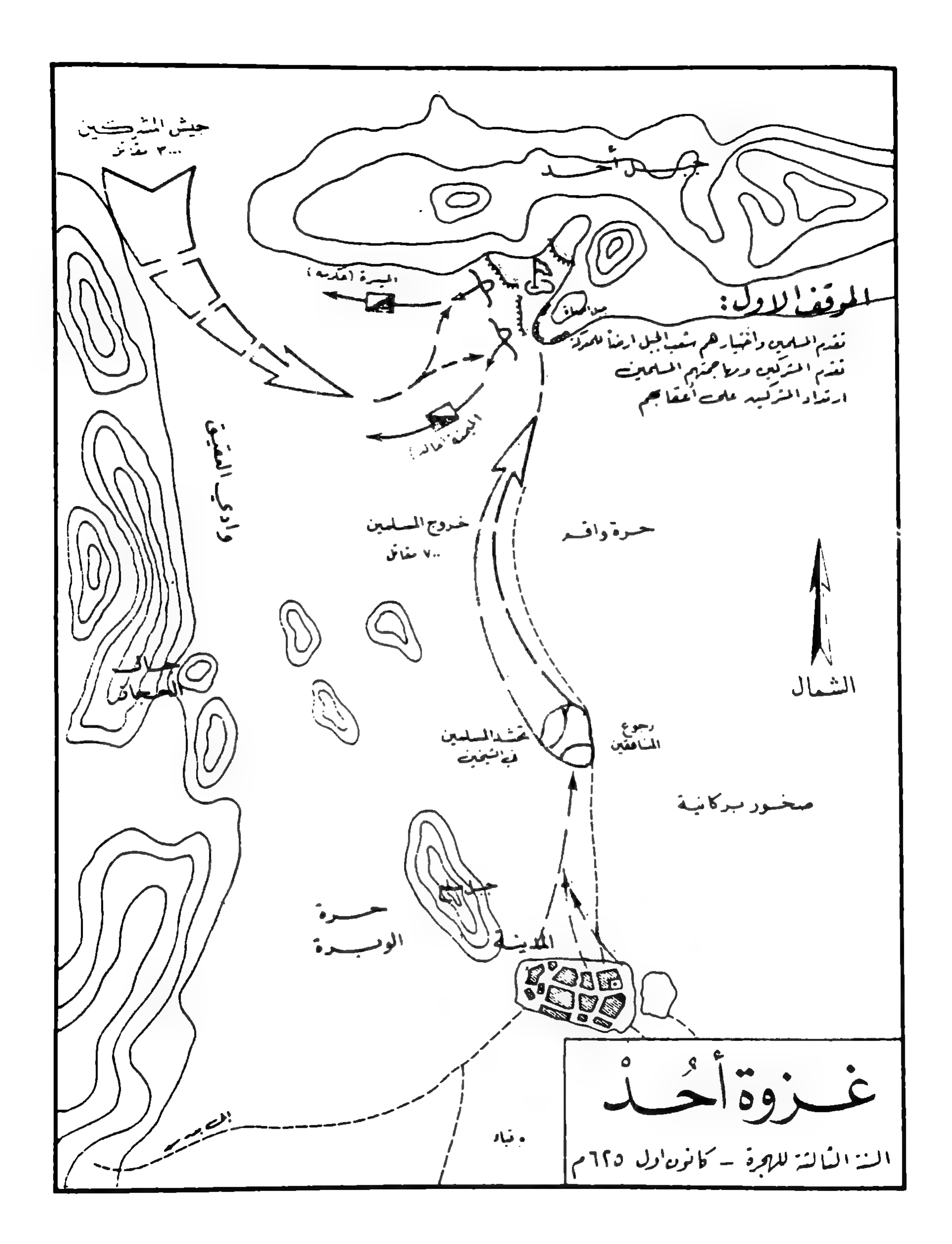
أحد بعد ذلك إلى نصرٍ مبينٍ في كل المشاهد التالية.

وفي ثباتِ نسيبةَ أم عمارةَ، ووقوفها وزوجها وأولادها حول الرسولِ حين انكشفَ المسلمونَ يوم أُحُدَ دليلٌ من الأدلّة المتعددة على إسهامِ المرأةِ المسلمةِ بقسطٍ كبيرٍ منَ الكفاحِ في سبيلِ الدعوةِ الإسلامية.

ونحن الآن بحاجة إلى المرأة المسلمة المجاهدة في كل الميادين، والمسلمون بحاجة إليها لتدعو إلى الله في أوساط الفتياتِ والزوجاتِ والأمهات، ولتنشئَ أطفالَها على حب اللهِ ورسولهِ، والاستمساكِ بالإسلام وتعاليمه، والعمل لخير المجتمع وصلاحهِ...

جدول بياني عن غزوة أحد

الجيش	العدد	العُدَّة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	٧٠٠	درعان ٥٠ قوساً ١٠٠ درع	فَرَسَان ظعينتان	٧٠ شهيداً	عدد كبير	-
جيش المشركين	٣٠٠٠	٧٠٠ درع	٢٠٠فرس ١٥ ظعينة	٢٢ قتيلاً	بضعة عشر	-


جيش المشركين
٣٠٠٠ مقاتل
جبل أحد
الميسرة (عكرمة)
الموقف الاول:
تقدم المسلمين واختيارهم شعب الجبل ارضا للمعركة
تقدم المشركين ومواجهتهم المسلمين
ارتداد المشركين على أعقابهم
المجنبة (خالد)
وادي العقيق
خروج المسلمين
٧٠٠ مقاتل
حرة واقم
الشمال
تحشد المسلمين في الشيخين
رجوع المنافقين
صخور بركانية
حرة الوبرة
المدينة
قباء
غزوة أحُدْ
السنة الثالثة للهجرة - كانون اول ٦٢٥ م

غزوة حمراء الأسد

كانت وقعة أُحد يوم السبت، للنصف الأوَّل من شوَّال، من السنة الثالثة من الهجرة النبوية.

فلمَّا كان الغد يوم الأحد، أمر رسول اللَّه ﷺ، بالخروج في إثْر العدو، مرهباً للعدوِّ وليعلموا أن المسلمين بهم قوَّةٌ. وطلب أن لا يخرج معه إلاَّ من حضر معركة أحد. فخرج المسلمون على ما بهم من الجراح والتعب، حتى بلغوا موضعاً يدعى حمراء الأسد، على بعد (١٥ كم) من المدينة تقريباً. ولهذا سمِّيت (غزوة حمراء الأسد)، أمر ﷺ بذلك ليُظهر للناس، بعد مصابهم في أُحد، أن الذي أصاب المسلمين لم يوهنهم عن عدوِّهم، ولم يضعفهم عن متابعة قتاله ومطاردة أعدائه. وفي هذا نزل القرآن يُثْني على هؤلاء المؤمنين، ويقول: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ *[آل عمران:١٧٢]*. والقرح: الجراح.

وكان معبدٌ الخُزاعي قد رأى خروج رسول اللّه، ﷺ والمسلمين إلى حمراء الأسد فلقيَ أبا سفيان وكفَّار قريش بالرَّوحاء، وهو موضع بين مكة والمدينة. فأخبرهم بخروج المسلمين في طلبهم، وأضعف قوَّتهم لأنَّهم كانوا أرادوا الرجوع إلى المدينة ليعيدوا ضربتهم للمسلمين.

فلمَّا أخبرهم معبد ثبَّط عزيمتهم[٢]، وكسر همتهم خروجُ المسلمين لملاقاتهم، فاستمرّ المشركون في سيرهم إلى مكّة.

فوصل رسولُ الله ﷺ وصحبُه إلى حمراء الأسد، وأقام بها ثلاثَ ليالٍ، ولم يَلْقَ حرباً، ثم رجع إلى المدينة، ودخلوها أرفع رؤوساً، وأعزَّ جانباً. ومع ذلك، فإنَّ آثار أُحُدَ المؤلمة، لم تُمْحَ، فقد تألَّبَتْ أكثر القبائل على المسلمين، وظنّوا أنهم قادرون على سَحْقِ المسلمين، وكان أوّل من تهيّأ لذلك بنو أسد.

سريّة

فلمّا علم رسول الله ﷺ بأن بني أسد تهيّأوا لقتال محمد وصحبه، بادرهم ببعْثِ أبي سَلَمة في (سريّة) على رأس مائة وخمسين صحابياً، فباغتوهم في ديارهم، وشتّتوهم، وظفروا بغنائم استاقوها إلى المدينة، ولم يُجْرَحْ أحدٌ منهم، إلا أنَّ أبا سلمة، قد التهب جرحُهُ الذي جُرح في أُحُدَ، فماتَ بعد أيّام رضي الله عنه.

سريَّة

وجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ، أن خالد بن سفيان شيخ هُذَيل، يجمّع الرجال ليغير على المدينة، فبعث إليه عبد الله بن أنيس في (سَرِيّة) فقتله.

---

[٢] شغل عزيمتهم عن محمد وصحبه.

الفصل الرابع

السنة الرابعة بعد الهجرة

يوم الرجيع

وصعب على هُذَيل أن يُقتل شيخُها، فجعلت تتبع الحِيل لتأخذ له بثأره، فذهب إلى رسول الله رجال من قبائل (عَضَل، والقَارة) فكذبوا عليه، وقالوا له: إن قومهم يرغبون في الإسلام، وأنهم يريدون أن يرسل معهم رجالاً من أصحابه يعلّمونهم الدّين ويقرئونهم القرآن، فأرسل معهم نفراً من أصحابه.

فلمّا كانوا عند ماء من مياه هُذَيل يقال له: الرّجيع، غدوروا بهم، واستصرخوا عليهم هُذَيْلاً، فهبّ مئتا هُذَليّ، أو أكثر. فلجأ النفّر إلى جبلٍ هناك، واعتصموا به، وجعلوا يقاتلون حتى قُتلوا، فسمّي ذلك اليوم (يوم الرّجيع) إلا ثلاثة منهم لم يقتلوا، فخدعوهم بحيلة فأسروهم.

منهم عبد الله بن طارق الذي تمكّن من الهرب لكنّهم رموه بالحجارة فقتل. وأما صاحباه فقد خرجوا بهما إلى مكّة فباعوهما لقريش، فاشترى عقبة بن الحارث خُبيب بن عدي فقتله ثأراً لأبيه الحارث المقتول ببدر، واشترى صفوان ابن أميّة زيد بن الدثنّة، فقتله بأبيه أميّة المقتول ببدر.

سريّة بئر معونة

فتألّم رسول الله من مقتل أصحابه في يوم الرجيع، لأنهم كانوا من خيرة القرّاء، ولِمَا كانَ في مَقْتَلِهم من الخِيانةِ والغدر. وبعد يوم الرجيع حدثت (سريّة بئر معونة). وذلك أنه قدم على رسول الله ﷺ شيخ من شيوخ بني عامر يكنى

(أبا بَرَاء) ويعرف بملاعب الأسنّة، فعرضَ عليه النبيُّ الإسلامَ، فلم يُسْلِمْ، ولم يبعدْ عن الإسلام. وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك، إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أَمْرِك، فإني أرجو أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: «إني أَخْشَى عليهم...».

فقال أبو براء: أنا لهم جار، أي حامٍ لهم ومجير، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في أربعين من أصحابه، فساروا حتّى نزلوا بئر معونة، وهي أرض قريبة من أرض بني عامر.

فلمّا نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتابِ رسولِ الله إلى عامر بن الطُّفَيْل شيخ بني عامر. فلمّا أتاه، لم ينظر في كتابِه، وقتل الرّجلَ، واستصرخ عليهم بني عامر فلم يستجيبوا له حفاظاً على عهد أبي براء للنّبيّ بحمايتهم.

فاستصرخ عليهم بني سُلَيم، فأجابه منهم (عُصَيَّةُ، ورَعَلُ، وذَكْوَانُ) فخرجوا إلى هؤلاء الأربعين، فحاصروهم، وقاتلوهم، حتى قتلوا كلّهم إلا كعب بن زيد طُرِحَ جريحاً بينهم، وعمرو بن أميّةَ الضمْرِيّ أُسِرَ. لكنهم أطلقوه لما علموا أنّه ضَمْري. فذهب لرسول الله، فأخبره، فحزن ﷺ عليهم، وظلّ شهراً، يدعو على قَتَلَةِ أصحابه في الرّجيع، وفي بئر معونة، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

غزوة بني النضير

متى وقعت غزوة بني النضير وما هي أسبابها ونتائجها؟

كانت هذه الغزوة في شهر بيع الأول، سنة أربع للهجرة.

ولقد خرج رسول الله ﷺ يوم السبت، فصلّى في مسجد قُباء، ومعه نفرٌ من أصحابه المهاجرين والأنصار.

ثم أتى بني النضير، فكلّمهم في دِيَةِ عامِريّينِ قتلهما عمرو بن أمية الضمريّ.

وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، كما كان بينهم وبين النبي عقد وحلف ومعاونة.

فقال بنو النضير: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت فاجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك، فنقوم ونتشاور، ونصلح أمرنا فيما جئتنا له.

فقعد رسول الله ﷺ مع أبي بكرٍ وعمر وعلي ونفر من الأنصار، إلى جدارٍ من جدرانهم، ليستظلّ ويستريح، منتظراً منهم جوابهم، فاجتمع بنو النضير (وهم إحدى القبائل الثلاث من يهود المدينة) وقالوا: مَنْ رجلٌ يصعد على ظهر البيت، فيُلقي على محمد صخرة فيقتله، فيريحنا منه؟

فإنّا لن نجدهُ أقربَ من القتل إلاّ الآن. فانتُدِبَ يهوديّ لذلك.

فأوحى الله عز وجل إلى رسول الله ﷺ بما ائتمروا به من ذلك، فقام ولم يُشْعِرْ أحَداً ممّنْ معه، ونزل قوله تعالى في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

أي صرفهم عنكم، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم، وفشلوا في غَدْرِهم بالنبيِّ ﷺ. ونهض إلى المدينة ولحقَه أصحابُه، وأخبرهم بما أوحى الله عز وجلّ إليه، ممّا أرادت اليهود فعله به. وذلك نقضٌ للعهد الذي بينهم وبين النبيِّ ﷺ وغدْرٌ به، فبعثَ إليهم ﷺ محمّدَ بن مسلمة: أنِ اخرجوا من المدينة، فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر. وقد أجّلتكم عشراً.

أي أمهلتكم مدة عشرة أيام، فمن رُئيَ بعد ذلك في المدينة ضُرِبَتْ عنقُه. فأَحَسُّوا بخطئهم، وبفظاعةِ غدرِهم.. فمكثوا على ذلك أياماً يتجهّزون، واستأجروا الإبل لحَمْل متاعهم. فأرسل إليهم المنافق ابنُ أُبيّ: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونِكم، فإنّ معي ألفين من قومي، وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم في إنقاذكم والدفاع عنكم.

وتمدّكم قريظةُ، وحلفاؤكم من غَطَفَان. فطمع رئيس بني النضير (حُيي بن أخطب) فيما قال ابن أبيّ. فتخلّى عن عزيمته في الرحيل، وأرسل إلى رسول الله ﷺ قائلاً: إنّا لا نخرج من ديارِنا، فاصنعْ ما بدا لكَ. فكبّر رسول الله ﷺ جَهْرَةً، وكبّر المسلمون لتكبيرِه. وأمر ﷺ بالتهيّؤ لقتالهم وحربهم، وخرج إليهم، في ربيع الأول، أوّل السنة الرابعة من الهجرة. واستخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم. وسار بالجيش، ودفع الرّاية إلى علي كرم الله وجهه.

فلمّا رأى اليهودُ (بنو النضير) رسول الله ﷺ قد قدم إليهم في أصحابه، ووالاهم عصرَ ذلك اليوم، وصلّى العصرَ قرْبَهم. فلمّا رأوا ذلك قاموا إلى حصونهم، يرمونه بالنّبْل والحجارة.

واعتزلتهم قريظةُ فلم تُعنْهم على رسول الله ﷺ. وخَذَلَهم ابنُ أُبيّ، وحلفاؤهم من غَطَفَان، فيئسوا من نُصْرتِهم.

فحاصرهم رسولُ الله ﷺ، ستَّ ليالٍ، وهم متحصّنون لا يبدو منهم استسلام، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلهم وحرق بعضها.

وعند ذلك قالوا: يا أبا القاسم، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على مَنْ صنعه، فما بالُ قَطْعِ النخل وتحريقها؟

هل وجدت ـ فيما زعمت ـ أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟

وفي هذا الكلام: يغيظونه، لكنَّه قال: قد حارَبَتْ يهودٌ. . . وامتدّ الحصار إلى أسبوعين. ثم قالوا: نخرج عن بلادكِ؟ فقال: لا أقْبَلُه اليوم، بل القتل. . .

ثم قال لهم ـ بمنطلق الرأفة والرحمة، والعفو عن الظالم ـ اخرجوا منها، ولكم دماؤكم، أي لا يقتل أحد منكم، ولكم ما حملت الإبلُ، إلا الحلَقَةِ، أي السّلاح من دروع وسيوف ورماح وغيرها من آلات الحرب.

فرضوا بذلك. فاحتملوا النّساء والصِّبيان، وحمَّلُوا الإبلَ أموالهم، وكانت ستَّ مئة بعير، وخرجوا مُظْهِرين التّجلُّدَ والقوّة، وعزَّة النفس، من زُهُوٍّ وفخر، ما رُئي مثله في حيٍّ للنّاس في زمانهم.

وخرجت النّساء على الهوادج، وعليهنّ الدّيباج والحرير المزركش، وعلى كلٍّ امرأة من حُليٍّ الذّهب والفضّة ما يكفي تزيين عشرين امرأة. خرجوا وَخَلْفَهم القِيَانُ ـ الرّاقصات ـ يضربن بالدفوف، ويعزفن بالمزامير، فجعلوا يمرّون قافلةً، قافلةً، وقد أُتْخِمَتْ بالأموال.

ومرّ سلاّمُ بنُ أبي الحُقَيق في قافلةٍ، قد رفعَ على جمل من جمالها جِلْدَ ثَور، قد حشاه بالحُليِّ (أساور، وعقود وخلاخيل وغيرها) وصار ينادي في المسلمين بأعلى صوته: هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضِها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل.

فمن أين لهم هذا الذهب الكثير؟! إنَّ هؤلاءِ يهودٌ، يعني يحبون الذهب إلى درجة العبادة، وإنَّ الذي يكنزونه من الذهب والفضّة ليدهش الخلق، لكثرته. فهؤلاء اليهود الذين نزلوا يثرب (أي المدينة المنورّة)، في عصر سبق ظهور الإسلام بمدّة ليست بعيدة، قد جاءوا مطرودين من بلادٍ بعيدة.

ومع هذا استطاعوا أن يجمّعوا هذه الأموال تجميعاً رهيباً، وذلك أنهم نزلوا في المدينة كمشرَّدين مستضعفين طردتْهم الأممُ من كلِّ أرضٍ ينزلون بها ـ لفسادهم وشرِّهم ـ فنزلوا بظاهر المدينة في حدائق وبساتين وزروع خصبة، تنصبُّ فيها مياهٌ عذبةٌ، فاخضرّت الأرض وكثر الشجر، وأثمرت، وصار للواحد منهم المئات من أشجار النخيل، وبذلك تحكّموا بالثروات الزراعية.

واستولوا على الأبنية والحصون الموجودة، بما يملكون من قوّة ماليّة.

وزادهم غنى أكثر، أنهم كانوا يُشْعِلون الفتن بين الأوس والخزرج، وتقام بينهما الحروب، فيضّطر هؤلاء العرب إلى بيع أرزاقهم وأموالهم وما يملكون لسَدٌ نفقات الحرب.

فلهذا كان اليهود يشترون من العرب، أو يعطونهم المال مقابل دفعات ربويّة كبيرة. فافتقر العرب وغني اليهود وأَثْرَوا ثراء فاحشاً، لأجل ذلك لّما رحل بنو النضير كانت أموالهم معهم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة.

وخرّبوا بيوتهم خلفهم حتى لا ينتفع منها المسلمون.

وحزن المنافقون عليهم حُزناً شديداً لكونهم إخوانَهم، في الغدر والخيانة والفساد. وأسلم من بني النضير اثنان قبل الرّحيل، فأحرزا أموالهما، ولم يمسّهما سوءٌ. وحاول بعضُهم مقاتلة المسلمين. فقاتلهم عليٌّ كرَّم الله وجهه، وقتل بعضهم، وهرب البعض الآخر. فلحق بهم أبو دجانة وسهل بن حنيف فقتلوهم.

وأما الذين رحلوا بسلام لم يصبهم أذى مع أنّهم خرجوا مُسِيئين للأدب، بعزف وغناء ورقص، وكلماتِ استفزاز مثل ما فعل ابن أبي الحقيق، الذي نادى بأعلى صوته: هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضِها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل. يعني بكلامه: معنا من الأموال ما نشتري به الناس، ما نستطيع أن نقلب به الأرض. وفعلاً إنهم حينما وصلوا خيبر، دانت لهم خيبر وخضعت لهم، وجعلتهم سادةً لها. ومن اليهود من رحل إلى جَرَش جنوب الشام.

ولقد نزل في بني النضير سورةُ الحشر، فأوضحت هذه السّورة قِصَّةَ بني النضير، وحصار الرسول لهُمْ، ووسوسة ابن أُبيّ والمنافقين لهم بأنّهم سيقفون في جانبهم، وما كان من جلائهم وتخريبهم لبيوتهم بأيديهم.

قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

يعني إن الله سبحانه وتعالى أخرج يهود بني النضير الكفار من مساكنهم، من المدينة، الإخراج الأوّل (أوّل الحشر) لأنهم غدروا بالنبيِّ ﷺ بعد أن عاهدوه، وتآمروا عليه مع المشركين.

ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من ديارهم لشدَّة تحصّنهم.

واعتقدوا أن حصونهم تحميهم من عذاب الله. فجاءهم أمر الله بالجلاء

من حيث لم يخطر لهم ببال، وألقى الله في قلوبهم الخوف وملأها رعباً.

يخربون بيوتهم من الداخل بأيديهم لئلاّ يسكنها المسلمون. وبأيدي المؤمنين من الخارج لتصفية آثارهم، ولولا أن قضى الله على يهود بني النضير بالّرد من الديار المقدسة لعذّبهم في الدنيا بالقتل والسّبي، ولهم في الآخرة عذاب جهنّم.

وهذا الطرد بسبب غدرهم ومحاولتهم اغتيال النبي ﷺ. وما قطعتم - أيها المؤمنون - في المعارك، لضرورات حربيّة من شجر النخيل، فبإرادة الله تعالى ومشيئته، وليذلّ الخارجين عن طاعته.

وما أخذتم من أموال الكفار (فَيْئاً) من غير قتال، فللّه الأمر فيه كما يشاء، ولرسوله، ينفق منه على أهله ونفسه ولأقربائه، ولليتامى، والفقراء والمساكين، ولابن السبيل (المنقطع أثناء سفره عن الوصول لبلده). حكم الله بذلك لئلاّ يكون مال الفيء متداولاً بين الأغنياء فقط. ولقد كان فيءُ بني النضير لفقراء المجتمع الإسلامي الذي كان محدداً بالمدينة

المنوّرة آنذاك، ومن الطبيعي أن يعمَّ العطاءُ الأكبرُ المهاجرين.

نزّل الله تعالى هذه السورة في أمر بني النضير، وما نتج عن هذه الغزوة من أحكام.

لذلك كان يسمّيها ابن عباس سورة بني النضير.

غزوة ذات الرقاع

علينا أن نعلم أنه بعد إجلاء بني النضير من المدينة المنوّرة، أقام رسول الله ﷺ شهري ربيع الأول والثاني، وبعض شهر جمادى الأولى، من صدر السنة الرابعة للهجرة.

فجاءته الأخبار بأن قبائل بني ثعلبة، وبني أنمار، وبني محارب المقيمين في نجد، قد جمّعوا جموعاً لمحاربة النبي ﷺ، فأخبر أصحابه، وأمرهم بالتجهز.

ثم خرج في أربعمائة من أصحابه، وقيل أكثر من ذلك.

واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل: عثمان بن عفان.

وساروا إلى أن وصلوا إلى موضع يسمى وادي الشقرة، وقد شق عليهم السفر وأتعبهم، حتى تورمت أقدامهم وتنقبت، فصاروا يلفونها بالخرق والرقاع، فسميت (غزوة ذات الرقاع) وقيل: بل سميت بذلك لرقاع في ألويتهم.

وقيل: ذات الرقاع، جبل فيه سواد وبياض وحمرة، فكأنها رقاع في جبل، فنزلوا عنده فسميت الغزوة بذلك الجبل.

وقيل: شجرة بذلك الموضع تدعى ذات الرقاع.

وتسمى هذه الغزوة أيضاً (غزوة محارب، أوبني ثعلبة، وغزوة بني أنمار) لأنهم كانوا القبائل المقصودين في خروج النبي إليهم.

وتسمى أيضاً (غزوة صلاة الخوف، أو صلاة الحرب) لأن النبي صلاها

فيها، ونزلت مشروعية هذه الصلاة في هذه الغزوة، وذلك لمّا لقيَ المسلمونَ جمعَ بني غطفان، وتقاربا، خاف الناس بعضهم بعضاً، وطال زمن التربص، صلى الرسول ﷺ صلاة الخوف، وكانت أول صلاة صلاها للخوف ولم يكن بينهم حرب، لأن النبي ﷺ لما وصل إلى موضع يسمى وادي الشقرة بعث السرايا إلى القبائل، فرجعوا إليه من الليل وأخبره أنهم لم يروا أحداً.

فسار حتى نزل نخلاً، وهو موضع في نجد، من أراضي غطفان، فلم يجد في مجالسهم إلا النساء، فعرف أن الرجال متجمعون بمكان، فأخذ النسوة لإخافتهن، فبلغ الخبر إلى القوم، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال.

ثم اجتمع منهم جمعان وجاءوا لمحاربة جيش الرسول ﷺ، فتواقفوا للقتال، إلا أنه لم يكن بينهم قتال، وأخافوا بعضهم بعضاً.

وفي هذه الغزوة ذهب رسول ﷺ يقيل في ظل شجرة (ينام في الظهيرة) وعلق سيفه في فرع من الشجرة، فتسلل إلى مكانه رجل من العدو، فأخذ سيف رسول الله، فاستله من غمده، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فإذا الرجل قائم على رأسه، والسيف في يده، وهو يقول له: من يمنعك منّي ؟

قال : اللّهُ، فسقط السيف من يده فأخذه رسول اللّه ﷺ وقال له: من يمنعك مني؟ قال: كنْ خيرَ آخذٍ .

فعفا عنه ﷺ، فأسلم الرجل، وجاء إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام وقال لهم: جئتكم من عند خير الناس وانصرف رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنورة.

غزوة بدر الصغرى أو
غزوة الموعد

وفي شهر شعبان سنة أربع للهجرة، خرج رسول اللَّه ﷺ إلى بَدْرٍ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، لميعاد أبي سفيان، وكان قد نادى يوم أُحد: موعدنا معكم بدر في العام المقبل فأجابوه: نعم.

لهذا تُسمَّى هذه الغزوة (غزوة بدر الصغرى ـ أو ـ غزوة الموعد) واستخلف على المدينة عبد اللَّه بن رواحة الخزرجي وحمل اللواءَ عليٌّ بن أبي طالب.

وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً، حتى نزل موضعاً قريباً من مُرِّ الظهران ثم بدا له أن يرجع.

فرجع ورجعوا معه بحجة أن العام مُجدبٌ وهذه حيلة دبَّرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لئلا يقال: أخلف وعده ولم يخرج وكانوا مثله لا يريدون حرباً فرجعوا دون اعتراض.

وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة شخصاً، ليخوِّف المسلمين ويقول لهم: إن قريشاً خرجت بأعداد كثيرة وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة.

لكنَّ المسلمين بقيادة الرسول ﷺ لم يبالوا بما سمعوا من كثرة عدد الجيش وقال النبيُّ وقتها: والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحدٌ لخرجت وحدي.

وفي هذه المدة كان المسلمون قد تاجروا في سوق بدر فباعوا واشتروا وربحوا كثيراً، ورجعوا إلى المدينة غانمين وأقاموا بها إلى نهاية ذي الحجة من السنة الرابعة للهجرة.

الفصل الخامس

السنة الخامسة بعد الهجرة

غزوة دُومة الجندل

فبلغ رسول اللهﷺ أنَّ قبائل تجمَّعت في دومة الجندل وهي مدينة تقع قرب تبوك بينها وبين دمشق مسيرة خمس ليالٍ وبينها وبين المدينة المنورة خمس عشرة ليلة.

تجمَّعوا يريدون غزو المدينة المنورة وصاروا يظلمون كل مَنْ مرَّ بهم. فخرج رسول اللهﷺ في ربيع الأول سنة خمس للهجرة واستخلف النبيُّﷺ على المدينة سِباع بن عرفطة الغفاري وكان عدد المسلمين ألفاً.

فأصاب أهل دومة الجندل الرُّعب وتفرَّقوا فغنم المسلمون إبلاً وعادوا دون أن يلقوا حرباً.

وتعدُّ غزوة دُومة الجندل هذه أول غزوات الشام.

محمد المصطفى الهادي النبيّ أجلّ	المرسلين ابن عبد الله ذي الكرم
خير النبيين والبرهانُ متَّضحٌ	في الحجْر نقلاً وعقلاً واضحُ اللَّقم
أميٌّ خطٌّ أبانَ اللهُ مُعْجِزَهُ	بطاعة الماضيين السَّيف والقَلَم
مؤيَّدُ العَزْم والأبطالُ في قَلَق	مؤمّلُ الصَّفح والهيجاءُ في ضَرَم
أبدى العجائب، بالأعمى بنفثته	غدا بصيراً، وفي الحرب البصير عمي
كم قد جَلَتْ جنْحَ ليل النَّقع طلعتُهُ	والشهب أحلك ألواناً من الدُّهُم
في مَعْرك لا تثير الخيلُ عثيرَهُ	ممّا تروّي المواضي تُرْبَهُ بدَم
آراؤه، وعطاياه، ونقمته	وعفوه.. رحمة للنّاس كُلِّهم
أفنى جيوشَ العدى غزواً فلست ترى	سوى قتيل ومأسور ومنهزم
أبادهم فلبيت المال ما جمعوا	والرّوحُ للسَّيف والأجساد للرّخم

يجـــزي إســـاءة باغيـــهم بســـيّئة ... ولـم يكـن عاديـاً منـهم علـى إرَم
سَــهْلٌ خلائقـــه، صعـــبٌ عرائكُـــهُ ... جـمٌّ عجائبُـهُ في الحُكـم والحكَـم
فــالحقُّ في أُفُــق، والشِّـركُ في نَفَـق ... والكفـر في فَـرَق، والدّيـنُ في حَـرَم
خاضوا عُبابَ الوغى والخيلُ سابحةٌ ... في بحـر حَـرْب بمـوج المـوت ملتطـم
في ظـــلِّ منصـــور اللـــواء، لـــه ... عـدلٌ يؤلِّـفُ بـين الذّئـب والغَنَـم
محمّد المصطفى المختار مَنْ خُتِمتْ ... بمجْـدِهِ مُرْسَـلو الرَّحمـنِ للأُمَـمِ[1]

غزوة المُرَيْسِيع أو بني المصطلق

وفي شعبان من السنة الخامسة خرج رسول اللّهﷺ إلى بني المصطلق وهم بطن من خزاعة ورئيسهم الحارث بن ضرار وكانوا قد تجمَّعوا لمحاربة النبي عليه الصلاة والسلام، فخرج إليهم في جموعٍ كثيرةٍ من الناس وخرج معه كثير من المنافقين ممن لم يكونوا يخرجون، خرجوا طمعاً في الغنيمة.

وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة .

فسارﷺ حتى وصل إلى ماء يقال له المُرَيْسِيع، فسميت غزوة المُرَيْسِيع، ولما تراءى الجمعان، رسول اللّه وصحبه، والحارث وقومه بنو المصطلق بعث لهم رسول اللّهﷺ يخبرهم أن الإسلام خير لهم وأنْ «قولوا لا إله إلا اللّه تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم»، فأبوا هذا العَرْض الذي ينجيهم من عذاب الدنيا والآخرة، ورشقوهم بالنبل، فردَّ عليهم النبيُّ ﷺ وتراشق الفريقان ساعة، ثم أمر رسول اللّهﷺ، أن يحملوا عليهم، فحملوا عليهم حملةً واحدة فقتلوا منهم عشرة

---

[1]-هذه الأبيات للشاعر صفي الدين الحلي المتوفى ٧٥٠ هـ وهي من قصديته الكافية البديعية.

وأسروا بقيَّتهم. وغنم المسلمون من الإبل ألفَي بعيرٍ ومن الشياه خمسة آلاف وسبوا النساء والذرية وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث فأراد رسول اللَّهﷺ أن يتألف قومها إلى الإسلام فقال لها: أعتقك وأتزوجك؟

قالت: نعم، ففعل رسول اللَّهﷺ.

فبلغ الناس أنه تزوجها، فقالوا: رسول اللَّه صهر بني المصطلق، فصار الناس يسرِّحون الأسرى ويرسلون ما كان في أيديهم من بني المصطلق، إكراماً لرسول اللَّهﷺ حتى أعتق بها مائة من أهل بيت بني المصطلق فلم يكن امرأة أعظم من جويرية على قومها وبسبب زواجها هدى اللَّه أكثر بني المصطلق إلى الإسلام حتى أن أباها الحارث سيِّد بني المصطلق قد أسلم.

ومن هنا نعلم أن زواجهﷺ منها كان لحكمةٍ.

وكان لهذه الغزوة آثارٌ على المنافقين، ليست قليلة، لقد كانت غزوة بني المصطلق موفَّقة وكان المسلمون فرحين بهذا النصر وكان المنافقون غير مسرورين فقد استغلوا حادثة ليس لها أيّ خطورة لولا كيدهم فقد كان هناك خلاف على بئر ماءٍ وقع بين أجيرٍ لعمر بن الخطاب وحليفٍ لبني الخزرج.

فتشاجر الرجلان وتضاربا فاجتمع إليهما الناس فصرخ الأجير (يا معشر المهاجرين) وصرخ الحليف (يا معشر الأنصار) فأوشك النزاع أن يقع بين بعض الأنصار وبعض المهاجرين. وصار المنافقون يحركون الفتنة، وصرخ منهم صارخ: يا لقوم فلان ،وصرخ آخر منهم: يا لقوم فلان.

فلما سمع الأعلام الرسولﷺ الصراخ خرج مسرعاً يقول: «ما بال دعوى الجاهلية» فأخبروه الخبر، فصاح غاضباً: «دعوا هذه الكلمة، فإنها مُنْتِنَةٌ».

وأدركﷺ الفريقين فهدأ من ثورتهما، وسكّن الفتنة واصطلح الرجلان المختلفان، وتصافى القوم.

ولكن رأس المنافقين (عبد الله بن أبيّ بن سلول) عزّ عليه أن تنطفئ هذه الفتنة، التي يشتهيها أن تحرق المهاجرين والأنصار معاً.

فصار يقول: (واللهِ ما رأيت كاليوم مذلة، قد نافرونا، وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا منتنا، والله ما نحن وهؤلاء إلا كما قال القائل: سِّمنْ كلبَكَ يأكلْك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، ثم أقبل على قومه يلومهم قائلاً: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وأنزلتموهم منازلكم، وأعطيتموهم أموالكم حتى استغنوا.

[يقصد بكل هذا الكلام النبي ﷺ وأصحابه المهاجرين] أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحركوا إلى غير بلادكم.

ودافعتم عنهم حتى أَيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا.

وكان الذي سمع كلامه رجل من المسلمين هو الشّاب الواعي زيد بن أرقم، وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم.

فحدَّثَ رسولَ اللهِ بذلك، وعنده نفر من المهاجرين والأنصار، فتغير

وجه رسول الله ﷺ، وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه..؟ قال: لا والله، لقد سمعت منه.

قال: لعله أخطأ سمعك؟ قال: لا يا نبيَّ الله، قال: فلعله شبه عليك؟ قال: لا والله، لقد سمعت منه يا رسول الله.

وشاع في الناس ما قاله ابن أبيّ، حتى صار حديثهم.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتل هذا المنافق: فقال رسول الله: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا.. ولكن أذّنِ بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها.

وبلغ الخبر ابن أبي فحلف بالله ما قال من ذلك شيئاً وكذَّب ذلك كله، ثم مشى إلى رسول الله وحلف له بالله أنه ما قال الذي قال، وأسرع رسول الله عند ذلك في السير، يريد أن يرحل فلما ركب رسول الله ﷺ، وسار، اعترض له الصحابي الأنصاري، السيد في قومه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها؟! فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي بن سلول.

قال: وما قال؟ فقال رسول الله ﷺ: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، قال: فأنت يا رسول الله ـ واللهِ ـ تخرجه منها إن شئت، هو ـ واللهِ ـ الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فو

الله لقد جاءنا اللهُ بكَ وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

يعني: كان ابن أُبيّ مرشحاً لرئاسة المدينة قبل مجيء النبي ﷺ.

فنزلت على رسول الله ﷺ السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أُبيّ، ومن كان على مثل أمره منافقاً. فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم، ثم قال له: «هذا الذي أوفى الله بأذنه» أي: جعل الله له أذنا واعية، يمدحه ويثني عليه.

فمما نزل في المنافقين وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون].

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي [ولم يكن منافقاً] الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل

أبي، فيما بلغك عنه؟ فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

فصار قومه يعاتبونه كلما أحدث حدثاً، فقال ﷺ: «كيف ترى يا عمر؟ أما واللهِ لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف [أي انزعج لقتله كثيرٌ من قومه] لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» لأنهم صاروا يتبينون نفاقة بأنفسهم، ويلمسون فِتَنَهُ بأيديهم، فقال عمر: قد ـ والله ـ علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

وقفل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ راجعين إلى المدينة المنورة، وفي الطريق نزلت آية التيمم، وكان سبب نزولها، أن عائشة رضي الله عنها انقطع عقدها، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام الناس معه على التماسه، حتى ابتعدوا عن الماء، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله، ﷺ، في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء [موضع على طريق المدينة] انقطع عقد لي، فأقام رسول الله، ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله، ﷺ، وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام،

فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء.

قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمّم، فتيمّموا.

فقال أسيد بن الحضير، وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته.

ولما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة من تلك الغزاة، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي لأبيه بالطريق، وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول، فأذن رسول الله ﷺ بدخوله.

غزوة الخندق

علمتم أن النبي ﷺ، قد أجلى يهود بني النضير عن المدينة المنورة، فانطوت نفوسهم على فكرة الانتقام من محمد وصحبه، وجعلوا يتلمسون الفرصة المناسبة للقضاء على المسلمين، وعلى دعوتهم الإسلامية.

وكان اليهود يعلمون أن قريشا ومن حولهم من الأعراب كارهون للمسلمين ولدعوتهم، فجعل بنو النضير همهم أن يجنّدوا القبائل الكارهين لمحمد، وأن يكوّنوا منهم حربا قاتلة للمسلمين، وبذلك يستريح اليهود من محمد وصحبه، الذي لم يترك اليهود تمارس دورها في ما يخدم مصالحها فقط،

ويضر بمصالح الآخرين.

إذاً حب الانتقام هو الذي دفع اليهود إلى تحزيب العرب على محمد وأصحابه. وهكذا فكر بنو النضير، وعلى هذه النية أجمعوا أمرهم وعقدوا عزيمتهم. فخرج حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، في نفر من اليهود، يحزبون الأحزاب على المسلمين، فجاءوا إلى قريش« ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: سنكون معكم عليه حتى نستأصِلَهُ».

فسألهم المشركون: (.. أَفَدِيْنُنَا خيرٌ أَمْ دينُه)؟ فقال لهم اليهود (بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بالحقِّ منه).

وهكذا دفعهم الحقد والعداوة للنبي ودعوته، إلى الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد، وأن الحجارة التي يعبدها المشركون خير من الله رب العالمين. فأنزل الله تعالى في موقفهم المُخْزِي ما يفضحُهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

فلما قالت اليهود ذلك لقريش، سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب المسلمين، فجعلوا يتأهبون لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان، فدعوهم إلى حرب المسلمين، وأعلموهم أن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، ووعدوا رجال غطفان أن يعطوهم ثمار خيبر من النخيل سَنَةً، إذا تمّ

لهم النصر على محمد، فاستجابت لهم قبائل غطفان.

وهكذا استطاع اليهود أن يجمعوا حوالي عشرة آلاف من الأحزاب، (قريش، وغطفان، وأسد، وسليم.. وغيرهم).

وسار هذا الجيش الكبير إلى المدينة، تحت قيادة أبي سفيان بن حرب، في شوّال سنة خَمْسٍ من الهجرة، فكانت (غزوة الأحزاب).

فما موقف المسلمين من هؤلاء الأحزاب؟؟

لّما علم رسول الله ﷺ بنبأِ هذا الجيش، جَمَعَ أصحابهَ فشاورهم، فيما ينبغي أن يعمل..

فقال سلمانُ الفارسي: يا رسول الله، إنّا بأرضِ فارس إذا خِفْنَا العدوَّ خَنْدَقْنَا علينا.

فأُعْجبَ مجلسُ الشّورى بهذه الفكرة، وأبدوا رغبتَهم في تنفيذها، فرضيَ الرسولُ ﷺ بهذا الرأي.

وقال: «سلمانُ منّا أهْلَ البيت»[1]، وقال المهاجرون: (سلمان منّا)، وقال الأنصار: (سلمان منّا).

وركب رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ من المهاجرين والأنصار إلى الجهة الشّمالية من المدينة، فاختطّ فيها الخندق، وكان شمال المدينة هو الناحية المكشوفة، التي يستطيع العدوّ أن يدخل المدينة منها، أما نواحيها الأخرى

---

[1] مستدرك الحاكم (٣/٥٩٨).

فكانت حصينة فَدُوْرُهَا من الجنوب متلاصقةٌ عالية كالسّور، وفي شرقها حَرَّةُ واقم، وفي غربها حَرَّةُ الوَبرة، والحرّتان تلال من حجارة غليظة وَعِرَةٌ، لا تستسهلها الركائب.

وكانت حصونُ بني قريظة من الجنوب الشرقيّ كفيلة بتأمين مؤخرة الجيش، فلا يمكن أن يُؤْتَى المسلمون من قِبَلها، إلا إذا غَدَرَ بهم بنو قريظة.

وندب رسول الله ﷺ الناس للعمل في الخندق، وخبّرهم باقتراب الأحزاب، فسمّيت (غزوة الخندق).

وعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون، فجعلوا يتسللون لِوَاذا [أي يستخفي بعضهم ببعض] ولا يحفرون مع المسلمين، وفيهم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣].

وكانَ مَنْ فَرَغَ من المسلمين من حفْرِ حِصَّتِه عاد إلى غيره فأعانه، حتّى كمل الخندق، وكانوا يقومون بذلك بنفس مطمئنّة راضية، يدفعهم إلى ذلك إقتداؤهم برسول الله ﷺ، الذي كان أسوة حسنة لهم، في مشاركتهم بالعمل والدّعاء لهم، وبعث القوّة المعنويّة في نفوسهم، فقد نقل التراب حتّى اغبرّ بطنُهُ الشريف ﷺ وهو يقول:

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدَيْنَا ... وثبّتِ الأقدامَ إن لاقَيْنا
ولا تصدَّقْنا ولا صلَّيْنَا ... إنّ الأُلَى قد بغَوا علينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا ... وإنْ أرادوا فِتْنَةً أَبَيْنا

وكان يرى ما في أصحابه من جوع وتعب، فيقول:

اللَّهم إنَّ العيشَ عيشُ الآخره فاغفرْ للأنصارِ والمُهَاجِرَه

فيجيبه أصحابه رضي الله عنهم مؤكّدين صِدْقَهم معه وعزمهم على نصرته ونصرة دينه:

نحن الذين بايعوا محمَّداً على الإسلام ما بقينا أبداً

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وكان في حفر الخندق معجزاتٌ للنبيِّ ﷺ، منها تكثير الطعام القليل الذي صنعه أحدهم رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ، ودعاه إليه، فنادى رسول الله ﷺ أهل الخندق جميعاً، فجاءَ أَلْفٌ جياع وأكلوا من الطّعام حتى شبعوا.

كيف حدثت هذه المعجزة؟

روى الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: احتفر رسول الله ﷺ الخندق، وأصحابُهُ قد شدّوا الحجارة على بطونهم من الجوع، فلمّا رأى ذلك رسول الله، ﷺ، قال: «هل دُللتم على رجلٍ يطعمنا أُكْلَةً»؟

قال رجل نعم، قال: فتقدّم فدلّنا عليه، فانطلقوا إلى بيت الرجل، فإذا هو في الخندق يعالج نصيبَهُ منه - أي يحفر حصته - فأرسلت إليه امرأته: أَنْ جئْ، فإنَّ رسول الله، ﷺ قد أتانا، فجاء الرجل يسعى، وقال بأبي وأمي [أي: فَرِحَ بنزول النبيِّ ﷺ عنده فرحاً شديداً] وله مَعْزَةٌ، ومعها جَدْيُها، فوثب

إليها [قام ليذبحها] فقال النبيُّ، ﷺ: الجدْيَ من ورائها [أي اذبح الجدي] فذبح الجدي، وعمدت المرأة إلى طحينةٍ [شيءٍ من الطحين عندها] فعجنتْها وخبزت، فأدركت القِدرُ [نضج الطعام فيها] فثرّدَتْ قَصْعَتَها [فتت الخبز في القصعة] فقربتها إلى رسول الله، ﷺ وأصحابه، فوضع ﷺ إصبعه فيها، وقال: «بسم الله.. اللهم بارك فيها، إطعَمُوا» فأكلوا منها حتى صدروا [رجعوا عن القصعة من الشّبع] ولم يأكلوا إلا ثلثَها، وبقي ثلثاها، فسرّح أولئك العشرة الذين كانوا معه أنِ اذهبوا وسرِّحوا إلينا بِعِدَّتكم [أي ابعثوا من أهل الخندق عشرة] فذهبوا فجاء أولئك العشرة، فأكلوا منها حتى شبعوا.

ثم قام ودعا لربّة البيت، وسَمَّتَ عليها وعلى أهل بيتها [أي بارك عليها، ودعا لها ولأهل بيتها بالبركة] فكان أن أكل أهل الخندق من الطّعام القليل وشبعوا على كثرتهم، وتلك من معجزاتِ النبوّة المحمَّدية.

أيضاً، وأثناء الحفر في الخندق، واجهتهم كُدْيَةً [صخرة صلبة] اعتاصت عليهم [لم تؤثر فيها المعاول] فدعوا رسول الله ﷺ إليها، فقال ﷺ: «دعوني فأكون أوّل من ضربها، فقال: بسم الله، فضربها فوقعت فِلْقَةٌ ثلثها، فقال: الله أكبر، قصور الشام وربِّ الكعبة، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة، فقال: الله أكبر، قصور فارس وربِّ الكعبة، فقال عندها المنافقون: نحن نُخَنْدِقُ على أنفسِنا وهو يَعِدُنا قصور فارس والروم؟! ثم ضرب الثالثة فقطع الثلث الباقي، وقال الله أكبر، فُتِحَ اليَمنُ، والله إني لأرى باب صنْعَاء».

فهذه معجزة له ﷺ، إذ أخبر بافتتاح تلك البلدان وهو خائف مع

أصحابه من عدوٍّ أن يدخل عليه مدينته.

وقد حقق الله تعالى نبوءته، وكأنه قد سلّم لأصحابه مفاتيح تلك البلدان.

وقد نصر الله عبده، وصدق وعده، واستجاب لدعائه، إذ وقف ﷺ فوق الخندق، ورفع يديه، إلى الله سبحانه وقال: «اللّهم مُنْزِلَ الكتاب، سريعَ الحسابِ، إهزمِ الأحزابَ، اللّهم إهزمهم وزلْزِلْهم»، فلما فرغ رسول الله ﷺ، كان قد أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد، حتى نزلوا قرب المدينة.

وكان الخندق مفاجأة مدهشة لهم، لم يكونوا يتوقعونها.

وخرج رسول الله ﷺ فعسكر بثلاثة آلاف مسلم خلف الخندق.

واضطرت الجيوش الزاحفة للقضاء على المسلمين أن تقف أمام الخندق، الذي قال عنه المشركون: هذه مكيدة لم تكن العرب تكيدها، ووقفت كتائب الأحزاب الباغية أمام الخندق حائرة لا تدري ما تفعل؟ وهكذا وقف الفريقان أمام الخندق وجهاً لوجه: المسلمون في قلة عددهم وضعف قوّتهم، والمشركون في كثرة جموعهم وضخامة استعدادهم.

وظل الفريقان مدّة يتناوشان بالنبل، فأصيب سعد بن معاذ بسهم.

وطال التربّص والانتظار بالأحزاب، وليس بينهم وبين المسلمين إلا

التناوش بالسّهام، فصار المشركون يفكّرون بالخِدَعِ.

وخشي حُيي بن أخطب اليهودي الذي حرّض على قتال محمد وجاء معهم، خشي أن يسأم الأحزاب، ويرجعوا فتفوت الفرصة، لا سيما والجوّ شتاء والأرض مجدبة، وقد أوشك ما معهم من عَلَف الدَّوابِّ أن يفنى، وهزلت الخيل والجمال من الجوع.

فرأى حيي أن الطريق إلى المدينة من قِبَلِ بني قريظة منجحٌ لهذه الموقعة، وكان بنو قريظة على عهدهم مع رسول الله ﷺ.

فذهب حيي إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد، فاحتال عليه حتى دخل إليه وصار يُغْرِيهِ بنقض العهد مع محمد، فقال له: يا كعب، إنما جئتك بعزٍّ الدهر، جئتك بقريش وسادتها، وغطفان وقادتها، قد تعاهدوا على أن يستأصلوا، مُحَمَّداً ومن معه.

فقال له: إني لم أرَ من محمد إلا وفاءً وصدقاً.

فلم يزلْ حيي يغري كعباً حتى رجع إليه وعاهده على الخيانة والغدر بمحمد.

فلما علم رسول الله بما كان من غدر بني قريظة، بعث إليهم سيِّدَيْ الأوسِ والخزرج سعدَ بن معاذ وسعدَ بن عبادة.

فوجدوهما على أخبث ما قيل عنهم، وقالوا لهم: لا عهد لمحمد عندنا، فناشدهم سعدُ الوفاءَ، وحذَّرهم الخيانة، فردّوا عليه رداً قبيحاً وشتموه، فرجعا

إلى الرسول وأخبروه بغدرهم.

فقال النبي ﷺ: «أبشروا ما معشر المسلمين» وقال: «والذي نفسي بيده ليفرّجن الله عنكم ما ترون من الشدّة، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكنّ الله كسرى وقيصر، ولتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله».

ورجع حيي إلى المشركين فأخبرهم بأن قريظة ستسمح بعبور الجيش من أراضيهم، فنشط المشركون من الخارج، والمنافقون من الداخل، وانتشر الرعب في قلوب أهل المدينة، وعزم المشركون أن يهجموا على قلب المدينة من صبيحة اليوم التالي.

وصاروا يتحدّون المسلمين، بتمشيط الخندق، حتى عبرَه بعضُهم منهم عمرو بن ود فقتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ونوفل بن عبد الله فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه.

وازداد قلق المسلمين، وفشا الذعر بينهم، فصار رسول الله يتضرع إلى الله أن ينصر المسلمين، فتدخلت العناية الإلهية، تلك الليلة أتى نُعَيم بن مسعود الأشجعي مسلماً، وأخبر النبيَّ بإسلامه، وأن قومه المشركين لا يعلمون أنه أسلم، فقال له النبيّ: «لو خرجت فخذّلت عنا، فإنّ الحرب خدعة»، فقال سمعاً وطاعة لرسول الله، فخرج نُعَيم حتى أتى بني قريظة وقال لهم: يا بني قريظة، إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، إنِ انتصروا على محمد ربحوا، وإن لم ينتصروا رجعوا إلى بلادهم، فيأتي محمد إليكم ويقضي عليكم لأنكم

ختنموه، فإني أرى أن لا تقاتلوا مع قريش حتى تأخذوا رُهُنَاً من أشرافهم، تضمنوا حياتكم بعد المعركة.

ثم خرج حتى أتى قريشاً وقال: إن بني قريظة بعثوا إلى محمَّد، وقالوا: ندمنا على نقض العهد، فهل يرضيك أن رجالاً منهم نأخذهم رهناً وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم وتعفوا عنّا؟ فقبل محمد، وعفا عنهم.

ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك. فتزعزعت كلمتهم.

فبعث المشركون إلى اليهود ليختبروهم: إنّا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخفّ والحَافر، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نفاجئ محمداً.

فقالوا: غداً يوم السبت، ونحن يهود، ولن نقاتل حتى تعطونا رُهُناً، فقالوا لا نعطيكم رهناً أبداً، ولا عهد بيننا وبينكم، فاختلفوا فيما بينهم.

وفي تلك الليلة بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً، في ليال شديدة البرد، فجعلت الريح تقلب خيامَهم، وتكفأُ قدورَهم، حتى ظن المشركون أنه هجوم ليليٌ من المسلمين، فصاح أبو سفيان: يا معشر قريش، ليتعرف كلّ امرئٍ منكم جليسهُ. . يا قوم تهدّمت الخيام، وانطفأت النار، وهلك الخيل والخف، وخانَتْنا بنو قريظة، فارتحلوا. . فإني مرتحل. . ووثب على جَمَلِهِ.

وارتحل المشركون عن آخرهم، وهم خائفون. وكان رسول الله ﷺ قد علم بهزيمتهم إذ اخبره سبحانه بنزول الملائكة تقصف بالمشركين، فبعث ﷺ حذيفة بن اليمان يستطلع خبرهم.

فرجع إلى النبيِّ ﷺ، فوجده قائماً يصلّي. فأخبره برحيلهم.. فقال: الحمد لله ربّ العالمين.

وفي هذا أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

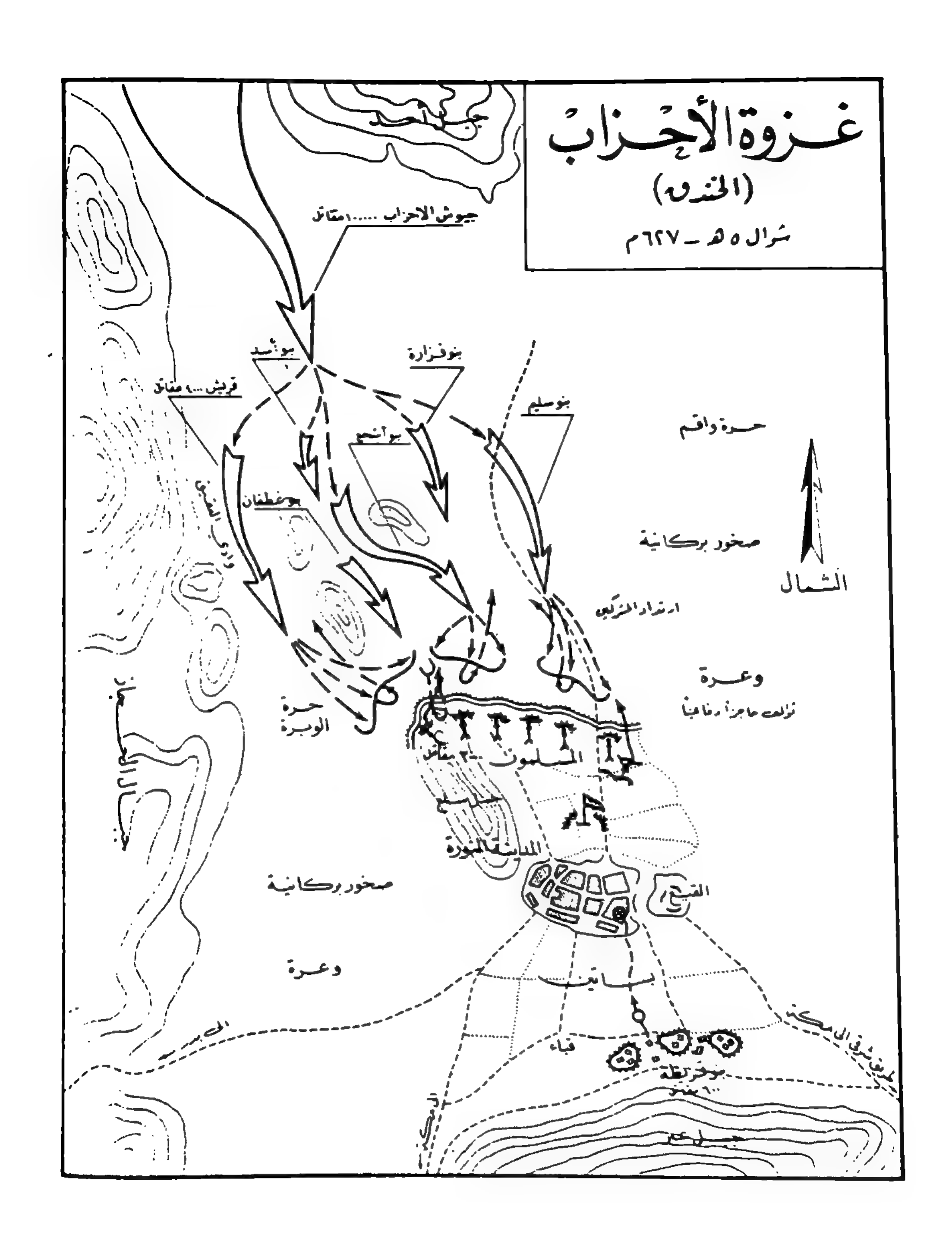
وهذه الجنود هم الملائكة الذين يبثون الطمأنينة والسَّكينة في قلوب المؤمنين، ويلقون الرعب في قلوب الكافرين.

ولما أصبح رسول الله ﷺ، وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة، ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل فقال يا محمد، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم، فما وضعت الملائكة سلاحها.

إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة.

جدول بياني عن غزوة الخندق

الجيش	العدد	العُدَّة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	٣٠٠٠	-	-	٨ شهداء	١	-
جيش المشركين	١٠،٠٠٠ تقريباً	عدة كاملة لكل مقاتل	١٥٠٠ جولاً ٣٠٠ حصان	٤ قتلى	-	-


غـزوة الأحـزاب
(الخندق)
شوال ٥ هـ ـ ٦٢٧م
جبل أحد
جيوش الاحزاب ...... مقاتل
بنو أسد
بنو فزارة
قريش ... مقاتل
بنو سليم
حرة واقم
بنو أشجع
بنو غطفان
صخور بركانية
الشمال
حرة الوبرة
وعرة
صخور بركانية
وعرة
قباء

غزوة بني قُرَيْظَة

لما رجع ﷺ بأصحابه، من حراسة المدينة خلف الخندق، بعد أن انهزم المشركون الأحزاب عن المدينة، أمره الله تعالى باللحوق، ببني قريظة، حتى يطهر أرضه من قوم خائنين، فقال ﷺ لأصحابه: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فساروا مسرعين، واللواء بيد علي رضي الله عنه، والخليفة على المدينة عبد الله بن ام مكتوم وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف.

ولـمّا رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم، وأرادوا الاعتذار عن غدرهم وخياناتهم لكنهم فشلوا، فتحصّنوا بحصونهم، وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مهرب من شدّة الحصار، طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال، وترك السلاح.

فلم يقبل النبيّ ﷺ، فطلبوا أن يرحلوا بأنفسهم من غير الأموال، فلم يرضَ أيضاً، بل قال ﷺ: «لابد من النزول، والرّضا بما يُحْكَمُ عليهم، خيراً كان أو شراً»، فقالوا له: أرسل لنا أباً لُبَابة نستشيره، وكان حليفاً لهم، فلمّا توجهّ إليهم، استشاروه في النزول على حكم الرسول ﷺ، فقال لهم: أنزلوا. و أَوْمَأَ بيده إلى حَلْقِهِ، يريد أن

يقول: إن الحكم عليكم هو الذّبح.

ثم إن بني قريظة لما رأوا أنه لابد من النزول على حكم رسول الله ﷺ، فقد فعلوا، فأمر النبي ﷺ أن يُربَط رجالهم بالحبال، فجاءه رجال من الأوس، وسألوه أن يُجْلَوا دون أن يقتلوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألا يرضيكم أن يَحْكُمَ فيهم رجلٌ منكم»؟ فقالوا: نعم، واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الأوسي، الذي جُرِحَ بسهم يوم الخندق فأوتي به محمولاً على حمار، فلما وصل إلى جماعة الأوس، وصّوه بأن يحكم ببني قريظة حكماً مخففاً، فتنهد، وقال رضي الله عنه: لقد آن لِسَعْدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم.

ولمّا وصل إلى النَّبيِّ وصحبه، قال ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» ففعلوا، وقال له النبي ﷺ: «احكم فيهم يا سعد»، فالتفت إليهم وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم كما حكمت؟ أي أترضون بحكمي، وتعاهدوني على الرضا به؟

فقالوا جميعاً: نعم، قال: فإني أحكم أن يقتل الرجال، ويسبى النساء والذرية.

فقال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله»، لأن هذا جزاء الخائن الغادر، ثم أمر بتنفيذ الحكم، فنفذ عليهم.

وهكذا قد طهّر الله الأرض المقدسة من اليهود الذين تعوّدوا الغدر والخيانة.

الفصل السادس

السنة السادسة بعد الهجرة

سريّة ضَرْبة

في السنة السادسة للهجرة، ولعشر مضت من محرم، بعث عليه الصلاة والسلام، محمد بن مسلمة في (سريّة) قوامها ثلاثون راكباً لشن الغارة على بني بكر، بناحية ضرْبةَ على طريق البصرة، يستريحون في النهار، ويسيرون في الليل، حتى وصل إليهم ودهمهم، فقتّل منهم عشرة، وهرب باقيهم، فاستاقت السرية النعم، وقفلوا راجعين إلى المدينة، وفي عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي، من عظماء بني حنيفة، فلما أتوا به إلى النبي عليه السلام، عامله بمكارم الأخلاق، وأطلق سراحه، فرجع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه، فَسُرَّ النبي ﷺ بإسلامه.

سريّة

وبعدما انقضى شأنُ الخندق وقريظة وسريّة ضربة جاء نفر من الخزرج، واستأذنوا رسول الله ﷺ لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحُقيق رئيس اليهود، الذي حزَّبَ الأحزاب، وألّب القبائل، وحرّض على قتل النبي ﷺ، فخرجوا (سريةً) مؤلفة من خمسة رجال من الخزرج، وأمرّ النبي عليهم عبد الله بن عتيك، ونهاهم عن قتل النساء والصبيان.

فانطلقوا حتى أتوا خيبر ليلاً، وكان سلام في حصنه، فدخلوه عليه وقتلوه، ثم نزلوا من الحصن، ورجعوا إلى رسول الله، فأخبروه بأنهم قتلوا عدوَّ الله سلام بن أبي الحقيق، وطهرت الأرض من كفره.

غزوة بني لحيان

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إلى الشهر الثالث من السنة السادسة للهجرة، فخرج في غزوة بني لحيان يقصدهم مطالباً بثأر عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وأصحابه الذين غدروا بهم يوم الرجيع، لأن بني لحيان هم الذين قتلوهم.

ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم، متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى أُتيحت الفرصة لذلك فسار في مائتي راكب، معهم عشرون فرساً، ولم يزل سائراً حتى مكان مقتل أصحاب الرجيع، فترحّم عليهم، ودعا لهم.

ثم شدّ السير في وادي غُران، وهي منازل بني لحيان، فوجدوهم قد حذروا، وتمنعوا في رؤوس الجبال، فأقام عليه السلام بديارهم يومين، يبعث السرايا في طلبهم فلا يظفرون بأحد منهم، ثم رجع ﷺ إلى المدينة.

غزوة الغابة أو ذي قرد

وبعد ليالٍ من رجوعه، ﷺ، خرج في نحو خمسمائة من أصحابه إلى ذي قَرد، وهو ماء على بعد يوم من المدينة، ليرد غارة شنّها إبن حِصْن على مواشي المدينة، بناحية الغابة، فسميت غزوة الغابة، - أو - ذي قرد.

أغار عينيه مع رجال من غطفان، فقتلوا راعي الإبل، واختطفوا امرأة كانت معه، وذهبوا بالمرأة والإبل إلى ديارهم. فعلم بأمرهم سلمة بن الأكوع من أصحاب النبي ﷺ، فصار يصرخ في أهل المدينة، فنادى رسول الله (يا خيل

الله اركبي)، وخرجوا يجدّون في السّير، حتى أدركوا آخر العدوّ، فقتلوا اثنين واستنقذوا شيئاً من الإبل، ونجا الباقي.

وأبدى سلمة بن الأكوع بطولة، وكان عدّاءً رامياً، استأذن رسول الله أن يلحقهم، فأذن له.

يقول سلمة: (لحقتُهم، حتى أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي وأنشد:

أنا، أنا ابن الأكوعِ　　　واليوم يوم الرّضّعِ

حتى استنقذتُ اللقاحَ منهم [النوق الحوامل] واستلبتُ منهم ثلاثين بُرْدَةً).

وجاء النبيَّ، ﷺ، فأثنى عليه، ومدحه على شجاعته، فقال: «وخيرُ رَجَّالتنا اليوم سلمة». ورجعوا إلى المدينة.

وأما المرأة فقد استطاعت أن تتغفّل القوم، وهربت على ناقة مما أخذه هؤلاء الغزاة الأشرار، فما شعر المسلمون إلا وهي تدخل عليهم المدينة.

فلمّا قدمت على النبيّ، ﷺ، قالت: يا ر سول الله إني نذرت لله تعالى، أن أنحرها [أي الناقة التي هربت عليها] إنْ نجّاني الله عليها، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «.. لا نَذْرَ لأحدٍ فيما لا يملك».

سـريّة

وفي ربيع الأول للسنة السادسة، بعث رسول الله، ﷺ عكّاشة بن محصن في (سريّة) من أربعين راكباً، حتى بلغوا الغَمْر، وهو ماء لبني أسد على طريق نجد.

وكان بنو أسد، كثيراً ما يؤذون من يمرّ بهم من المسلمين.

فخرج عكاشة إليهم سريعاً، ليأخذهم على غفلة، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا، ولم يقبضوا إلا على واحد منهم دلَّهم على النَّعَم فأطلقوا سراحه، واستاقوا الأنعام، وكانت مائة بعير ثم رجعوا إلى المدينة ولم يلقوا حرباً.

سـريّة

وفي ربيع الثاني من هذه السنة بعث رسول الله ﷺ

محمد بن مسلمة في (سريّة) على رأس عشرة رجال، إلى بني ثعلبة بذي القَصَّةِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ بلغه أنهم يريدون الإغارة على نَعَمِ المسلمين التي ترعى بالهيفاء قرب المدينة، فكمن لهم المشركون وتربصوا بهم، حتى نام المسلمون العشرة، ثمّ انقضّ عليهم المشركون فقتلوهم جميعاً، إلا محمد بن مسلمة، فقد وقع جريحاً، فظنوه ميتاً، فتركوهم مطروحين وهربوا. فمرّ به رجل من المسلمين فحمله إلى المدينة.

سريّة

وعلمﷺ بما كان، فأرسل (سريّة) بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح في أربعين رجلاً، فلمّا وصلوا إلى منازل القوم لم يجدوا بها إلاّ بعض النّسوة والنّعم، فرجعوا بما وجدوا، ولم يقتص من الأعداء.

سريّة

وفي ربيع الآخر أيضاً، بعث رسول الله، ﷺ زيد بن حارثة على رأس (سريّة) في نفر من المسلمين، إلى بني سليم بالجَموم، الذين كانوا من المتحزّبين في غزوة الخندق.

فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرّقوا، لكنهم أصابوا منهم نَعَمَاً، وأسروا رجالاً، فرجعوا بذلك إلى المدينة.

سريّة العيص

وفي جمادى الأولى من هذه السَّنَةِ بعث رسول اللهﷺ زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب إلى العيص، فسمّيت (سريّة العيص)، وذلك أن رسول الله بلغه أن عيراً لقريش، أقبلت من الشام تريد مكة، فأرسل هذه السّريّة ليعترضها، فأخذها وما فيها، وأسر من معها من الرجال، وكان فيهم زوج زينب بنت رسول اللهﷺ أبو العاص بن الربيع، فاستجار بزوجه زينب، فأجارته.

فقال رسول الله ﷺ: «المسلمون يدٌ واحدةٌ، يجيرُ عليهم أدناهم، وقد أجَرْنا مَنْ أجَرْتِ» .

وردّ عليه ﷺ القافلة كلها، فذهب إلى مكة، فأدّى لكلِّ ذي حقٍّ حقّه، ورجع إلى المدينة مسلماً، فردّ عليه رسول الله زوجَه زينب.

سريّة

نرى السرايا كثيرة هذا العام وإنها سرايا لتأديب القبائل المتمرّدة مثل (سريّة) الطّرف: في جمادى الآخرة، بعث رسول الله زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة بناحية الطرف، وهو ماء بطريق العراق.

فخرج في خمسة عشر رجلاً، فأصاب عشرين بعيراً، وهرب بنو ثعلبة، ولم يعثر على أحد منهم. ورجع زيد بالنّعم إلى المدينة المنوّرة.

سريّة

و (سريّة) وادي القرى: في رجب بعث عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بني فزارة، لأنّهم تعرّضوا لزيد، وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما معه، وكادوا يقتلونه، فلما جاء المدينة، وأخبر الرسول الخبر، بعثه مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادي القرى، فساروا حتى دهموا العدوّ، وأحاطوا بهم، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وأسروا، ورجعوا إلى المدينة.

سريّة

و (سريّة) دُومة الجندل: في شعبان، بعثﷺ عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة، لغزو بني كلب في دومة الجندل، وقد وصّاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر: «اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله، وسيرة نبيّه فيكم»، ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله، حتّى حلّوا بديار العدوّ، فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم وكان نصرانياً، وأسلم معه جماعة من قومه، وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية، ورجعوا إلى المدينة.

سريّة

و(سريّة) الهمج: في شعبان أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بفَدَك، لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين، مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر.

فسارت السّرية، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدوّ، أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها، فطلبوا منه أن يدلّهم على القوم، وهو آمن، فدلّهم على موضعهم.

فاستاق المسلمون منه نَعَم القوم، وهرب الرّعاة، فحذروا قومهم فداخلهم الرعب، وتفرّقوا. فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير، وألفا شاة، وردّ الله كيد المشركين فلم يمدّوا اليهود بشيء.

سـريّة

و(سريّة) إلى خيبر، بقيادة عبد الله بن رواحة الخزرجي على رأس ثلاثين من الأنصار، وكان سببها أن اليهود في خيبر بعد مقتل كعب بن الأشرف ولّوا مكانه أُسَير بن رزام، فبلغ النبيّ ﷺ أنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنع أحد قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه. وسعى في ذلك، فأرسل عليه السلام ابن رواحة لاستمالته، فخرجوا حتى قدموا خيبر، ودخلوا على أُسَير، وقالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له.

قال: نعم، ولي مثل ذلك، فأجابوه، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله، ويترك ما عزم عليه من الحرب، فيولّيه الرسول على خيبر، فيعيش أهلها بسلام.

فأجاب إلى ذلك، وخرج في ثلاثين يهودياً، كل يهوديّ رديف لمسلم.

وبينما هم في الطريق ندم أُسَير على مجيئه، وأراد التخلص مما فعل ففكّر بالغدر ممن أمّنوه، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة، فانتبه ابن رواحة وقال: أَغَدْراً يا عدوَّ الله؟! ثم نزل وضربه بالسيف فقطع فخذه، ولم يلبث أن مات.

فهبَّ المسلمون على مَنْ معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم. وهذا عاقبة الغدر والخيانة ومعاداة الحق.

سريّة

و(سرية) كُرْز بن جابر الفهري، الذي بعثه رسول الله ﷺ في عشرين فارساً، خلف جماعة من عُكَل وعُرَينة، الذين ادَّعوا الإسلام، وجاءوا المدينة وبايعوا النبيَّ ﷺ، وكانوا مرضى فطببهم رسول الله وداواهم وبعث إلى الأرض التي نزلوا بها راعياً ونوقاً ليشربوا من ألبانها ولما تمَّ شفاؤهم قتلوا الراعي ومثَّلوا به، واستاقوا الإبل، وهربوا .

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ بعث خلفهم هذه السرية فلحقوا بهم وقبضوا عليهم جميعهم فنُفِّذ فيهم القصاص، بقتلهم الراعي، وهكذا يكون جزاء الخائن.

سريّة

و(سرية) إلى مكة، وكان سببها أن أبا سفيان قال: ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً ، فإنه يمشي بالأسواق، لنستريح منه؟ فخرج رجل إلى المدينة ودخل على النبي في المسجد فرآه النبي ﷺ فقال: إن هذا الرجل يريد غدراً وإن الله مانعي منه، فذهب لينحني على الرسول، فسقط الخنجر. فندم الرجل على فعلته، وقال: يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي، وضعفت نفسي، فعرفت أنك على حقّ، وأن أبا سفيان من حزب الشيطان، ثم أسلم. وعند ذلك أرسل ﷺ عمرو بن أمية الضمري ورجلاً معه ،

ليؤدِّب أبا سفيان جزاء اعتدائه. فلما قدما مكة وتوجّها إلى الكعبة ليطوفا رآهما مشرك فقال: هذا عمرو ورفيقه، ما جاء ا إلا بشرٍّ فهربا ،ورجعا إلى المدينة، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم، ويقوم بتقديم مفاتيح مكة بنفسه إلى رسول اللهﷺ فيما بعد وهذا ما جرى يوم فتح مكة.

أمر الحديبية

إنَّ أَمْرَ الحديبية كان قبل غزوة خيبر، قد رأى النبيّﷺ في نومه، أنّه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رؤوسهم ومقصّرين.

فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة، فخرجﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، وكانوا أربع عشر مائة، إلى خمسة عشر مائة، معتمراً، وخرج معهﷺ زوجُه أمّ سلمه، وساق الهَدْيَ معه ﴿وهي المواشي التي تذبح في الحرم تقرباً إلى الله تعالى﴾ ليعلم الناس أنه لم يكن غازياً، بل معتمراً، أي زائراً للبيت الحرام، ولم يكن معهم سلاحٌ، إلا سيوفهم في قِرَابها.

ثم سار حتى بلغ عُسْفان، مكان قريب من مكّة.

فجاءَهُ الخبر أنَّ قريشاً اتفقوا على صدِّه عن الحرم، وتجهزّوا للحرب، وأعدّوا الفرسان لذلك، وخرج مئتا فارس منهم ليمنعوه من التقدّم، فغيَّر رسول الله طريقه إلى مكّة حتى أشرف على الحديبية، مكان يبعد عن مكّة ٨كم

تقريباً وهناك قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا تدعُوني قريشٌ لخصْلَةٍ فيها تعظيم حرمات الله إلاّ أجبتُهم إليها».

يعني أنه ﷺ لم يعزم على قتالهم أبداً، ولم يكن بباله أن يكون قتال، إنّما جاء يزور البيتَ عن شوق إليه.

مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءَهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم ثم أمرهم ﷺ بالنزول في الحديبية.

فأتاهم مبعوثُ قريشٍ يسأل عن سبب مجيءِ المسلمين، فأخبره عليه السلام بمقصده، فرجع وأخبرهم، فلم يثقوا به، وقالوا: (أَيريدُ محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً، تسمع العرب أنه قد دخل علينا عُنْوَةً، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟ واللهِ لا كان هذا أبداً، ومنّا عينٌ تطرفُ).

ثم أرسلوا رجلاً ثانياً، وكلّم رسول الله ﷺ فرجع بمثل ما رجع الأوّل، فبعثوا ثالثاً، فرآهم يلبّون ويسوقون الهدي، فرجع إلى قريش، وقال: (سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا، أتحج القبائل، ويُمْنَعُ عن البيت ابن عبد المطّلب؟! هلكت قريش، وربِّ البيت، إن القوم أتوا معتمرين). فقالوا له اجلس لا علم لك بالمكايد، ثم أرسلوا رابعاً، فخاطب النبيّ ﷺ بأن يرجع، كلّمه بلهجة فيها تهديد. فرد عليه النبيُّ بلطف، فرجع إلى قريش وقال: (ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه)، فقالت قريش: ولكن نردُّهُ عامنًا، ويرجع إلى قابل [أي العام المقبل].

غزوة الحديبية

ثم إن الرسول ﷺ اختار عثمان بن عفان فبعثه إلى قريش حتّى يُعْلِمَهُمْ مقصده، فقالوا له: إنّ محمّداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً.

ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف، ورسول الله ممنوع، فحبسوه، فشاع أن عثمان قتل، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب» أي: لا نرجع حتى نقاتلهم، ولهذا سمّاها المؤرخون (غزوة الحديبية).

ودعا ﷺ الناس للبيعة على القتال، فبايعوه على الموت، تحت شجرة، فسمّيت (بيعة الرضوان) لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وانتشر خبر هذه البيعة، فخافت قريش، فبعثوا خمسين رجلاً ليختبروا قوّة المسلمين، فأَسَرَهُمْ حارسُ المسلمين، وهرب رئيسُ الخمسين، فبعثوا جَمْعاً، ليناوشوا المسلمين، فأُسِرَ منهم اثنا عشر، وهرب الباقي.

وعند ذلك ازداد خوفُ المشركين، فأرسلوا سهيلَ بن عَمْرو ليكلّم المسلمين بالصلح، فجاءه وقال: يا محمد، إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا، بل شيء قام به السّفهاءُ منا، فابعث إلينا بمن أَسَرْتَ، فقال رسول الله ﷺ: حتى ترسلوا مَنْ عندكم، عندئذ أطلقوا عثمان بن عفان.

ثم عرض سهيلٌ الشروط التي تريدها قريش وهي:

١ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.

٢ـ مَنْ جاءَ المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُجبْرون على ردِّه.

٣ـ أن يرجع المسلمون من غير عُمْرةٍ هذا العام، ويدخلوا مكّة العام المقبل، ليس معهم إلا سلاح الراكب، ويقيموا فيها ثلاثة أيام فقط.

٤ـ مَن أراد أن يدخل في حِلْف محمد دخل، أو في عهد قريش دخل.

فقبل رسول الله ﷺ كُلَّ هذه الشروط، وكان (صلح الحديبية).

وفسّر رسول الله ﷺ للمسلمين الشرط الذي أقلقهم: إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

ثم كُتبت شروطُ الصلح في نسختين، لقريش وللمسلمين، وبعد الكتابة جاءهم أبو جندل بن سهيل يجرّ قيوده، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، فهرب إلى المسلمين، ولكن العقد أُبرم في ردٍّ من جاءه من قريش مسلماً، فقال ﷺ: اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعل لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنّا قد أعطينا القوم عهدا فلا نغدر بهم، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدي، ليتحللوا من عمرتهم، فلم يبادروا بالامتثال، فدخل عليه الصلاة والسلام على أم سلمه وقال لها: هلك المسلمون، أمرتهم فلم يمتثلوا.

فقالت: يا رسول الله، اعذرهم، فقد حمّلتَ نفسك أمراً عظيماً في الصلح، والمسلمون لذلك مكروبون، فاخرج وابدأهم بما تريد، فإذا رأوك فعلت تبعوك.

فتقدّم عليه السلام إلى هَدْيه فنحره، ودعا بالحلاّق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروها وحلقوا.

ثم رجع المسلمون إلى المدينة.

نتائج الصلح

قد أَمِنَ كلّ فريق من الآخر، ودخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم، ودخل بنو بكر في عهد قريش، وأما الذين أسلموا وجاءوا إلى المدينة، فكان النبيﷺ، يردهم وفاءً بعقد الصلح، فصاروا يتجمّعون على طريق مكّة، وشكّلوا قوّة، فقطعوا الطريق على تجارة قريش، حتّى قطعوا عنهم المُؤَنَ، فصارت قريش تستغيث برسول الله في إلغاء هذا الشرط الذي يردّ فيه من جاءه من قريش مسلماً، فقبل وصار المسلمون الجدد يأوون إلى المدينة.

وكان أمر الحديبية فتحاً مبيناً، وفي رجوعهﷺ من الحديبية نزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ سورة الفتح بكاملها. وكتب رسول اللهﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى قيصر، وإلى أمير بصرى، وإلى الحارث بن أبي شمّر الغساني، وإلى المقوقس، وإلى النجاشي، وإلى كسرى، وإلى المنذر

بن ساوى، وإلى غيرهم.

وبهذه الهدنة أمن المسلمون من شرّ قريش، وصارت لهم الحرّيّة، يسيرون حيث شاءوا، إلا أنهم كان لهم عدوٌّ بالقرب منهم، يتربّص بهم الدوائر، وذلك العدوّ هم يهود خيبر.

الفَصْلُ السَّابِعُ

السنة السابعة بعد الهجرة

غزوة خيبر

علمتم أن النبيَّ محمّداًﷺ قد عَهِدَ عَهْدَ الحديبية، فأمن قريشاً وأمن الجنوب كُلَّهُ. لكنّه لن يأْمَنَ من ناحية الشمال أن يستعينَ هرقلُ أَوْ أَنْ يستعين كسرى بيهود خيبر، وأن يُحَرِّكَ في نفوسهم ثاراتهم القديمة، وأن يذكِّرهم إخوانهم من بني قريظة والنضير وقينقاع. فكانت عندئذ (غزوة خيبر) حيث صمّم ﷺ على المسير إليهم، والاستراحة منهم، لأنهم كانوا من قبل أعظم مهيّج للأحزاب ضدّ الرسول ﷺ، والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضدّ رسول الله ﷺ.

ثم إنَّ سلاّم بن مِشْكم زعيم اليهود في خيبر، كان قد عزم على محاربة المسلمين، وصار يبيّت للغدر بهم. ولما تمّ الصلح بين المسلمين وقريش في الحديبية يئس اليهود من معاونة العرب لهم، فصرّح سلاّم لزعماء خيبر، بأنّ خطراً يتهدد كيان اليهود في الحجاز، وأبان لهم أن الواجب على اليهود أن يتوحّدوا، وعلى يهودِ وادي القرى وتيماء أن يتألّفوا مع يهود خيبر، ويزحف الجميع بجيش جرّار لِغَزْوِ المسلمين وإبادتهم. وإن عجزوا فلا بُدَّ من الاستعانة بقوّة قاهرة كالفرس أو الروم.

فعلم الرسول ـ مِنَ اللهِ ـ بما يدور في نفوسهم، فأخذ يتهيّأ لقتالهم. وفي محرّم السنة السابعة، أمر عليه السلام بالتجهّز لغزوهم. وقد استنفر لذلك مَنْ حوله من الأعراب. وكانت خطته ﷺ دائماً، أن يفاجئ أعداءه، قبل أن يفاجئوه، لكنَّ المنافق ابن أُبيّ بن سلول أَرسل سرّاً إلى

يهود خيبر يقول لهم: إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم.

فلمّا سمعوا بقصده أخذوا يعدّون للحرب على عَجَل، فكانوا يخرجون كل يوم في عشرة آلاف مقاتل متسلحين مستعدين صفوفاً، ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهاتَ، هيهاتَ.

وأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون، وجمّعوا المقاتلة في حصون أخرى، وكانت بلاد خيبر مقسّمة إلى ثلاث مناطق حربيّة الأولى: منطقة النطاة. وفيها أربعة حصون (الناعم، الصعب، الكثيبه، بقلة).

والثانية: منطقة الشّق. وفيها حصنان (أُبَيّ، البرّي).

والثالثة: منطقة الكثيبة. وفيها ثلاثة حصون (القموص، الوطيح، سُلاَلم).

فهي في كل منطقة حصون منيعة، على رؤوس الجبال.

واليهود يخشون الحرب في الميدان، ولا يحاربون إلا أمام الحصون، حتّى إذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها، فهم جبناء على مَكْرٍ ودهاء، قال تعالى: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

والرسول يعرفهم، فوضع خطته على أساسِ طبيعتهم.

ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فبدأ عليه السلام بحصون النطاة، وعسكر المسلمونَ شرقيَّها، بعيداً عن مرمى السهام، وأمر عليه السلام أن يُقطع نخلُهم، ليخوّفهم حتّى يسلّموا، فقطع

المسلمون عدداً من نخيلهم، ولم يسلّموا.

ولما رأى النبيّ تصميمهم على الحرب، نهى عن القطع.

ثم ابتدأ القتال مع حصنٍ بالمراماة، وصار ﷺ يغدو كلّ يوم مع بعض الجيش للمناوشة، ويخلف على العسكر أحد المسلمين، حتى إذا كانوا في الليلة السابعة، ظفر حارسُ الجيش عمرُ بن الخطاب بيهوديٍّ خارجٍ في جوف الليل، فجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فرعب كثيراً هذا اليهودي، فقال: إنْ أمّنتموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم؟ فقالوا: دلّنا، ولك الأمان، فقال: إنّ أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشّق، وسيخرجون لقتالكم غدا، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المنجنيق، ويدخل الرجال تحت الدبابات، فينقبون الحصون، فتفتحه من يومك، فعرف النبيُّ منه بعض أسرار الحصون، لكنه لم يتّبعْ إلا خطّته التي رسمها عليه السلام.

وفي اليوم التالي دفع ﷺ الراية إلى علي بن أبي طالب، وتوجّه المسلمون للقتال، فوجدوا اليهود متجهّزين.

ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوّة، وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه، ثم تتبّعوهم إليه، فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رُدّ عنه المسلمون، ولكنّ الحُبَاب بن المنذر ومن معه ثبتوا، وقاتلوا بشدَّة حتى هزموا اليهود فتبعوهم، حتى افتتحوا

عليهم الحصن، ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن غيره، فتبعهم المسلمون، وحاصروهم ثلاثة أيّام، حتى استصعب عليهم فتحه.

وفي اليوم الرابع قاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشّق، وبذلك تكون المنطقة الحربية الأولى (النطاة) قد سقطت.

وكان دفاع اليهود في المنطقة الثانية أشدّ، فقاتل المسلمون قتالاً شديداً، حتى تمكّن أبو دجانة من دخول الحصن عنوة، ففتح عليهم وانهزم اليهود إلى غيره، فتمنّعوا به أشدّ التمنّع، وكانوا أكثر رمياً بالنبل والحجارة، حتى أصابَ النبيَّ رميُهُمْ، فنصب المسلمون عليهم المنجنيق، فوقع في قلب أهله الرّعب، وهربوا منه من غير عناء شديد، ثم لحق المسلمون ببقايا العدوّ الذين فرّوا إلى حصون الكثيبة (المنطقة الحربية الثالثة) فحاصر المسلمون الأعداء في حصن القَموص، عشرين ليلة، ثم فتحه الله، وتابعوا حصارهم لهم في حِصْني الوطيح والسُّلالم، فلم يقاوم يهود هذين الحصنين، بل سلّموا طالبين الجلاء عن خيبر دون قتل، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك.

وصالحهم رسول الله ﷺ على أن ذمّة الله ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً.

وهكذا فتح الله خيبر للمسلمين، وكانت معارك خيبر شديدة على الفريقين، وقد بلغ عدد قتلى اليهود ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين خمسة عشر.

وقد فرح النبيّ ﷺ فرحاً شديداً بهذا الفتح، وعبّر عن ذلك بقوله: «واللهِ ما أدري: أبقدوم جعفر أنا أُسَرُّ وأفرح، أم بفتح خيبر».

ومن أين قدم جعفر بن أبي طالب؟

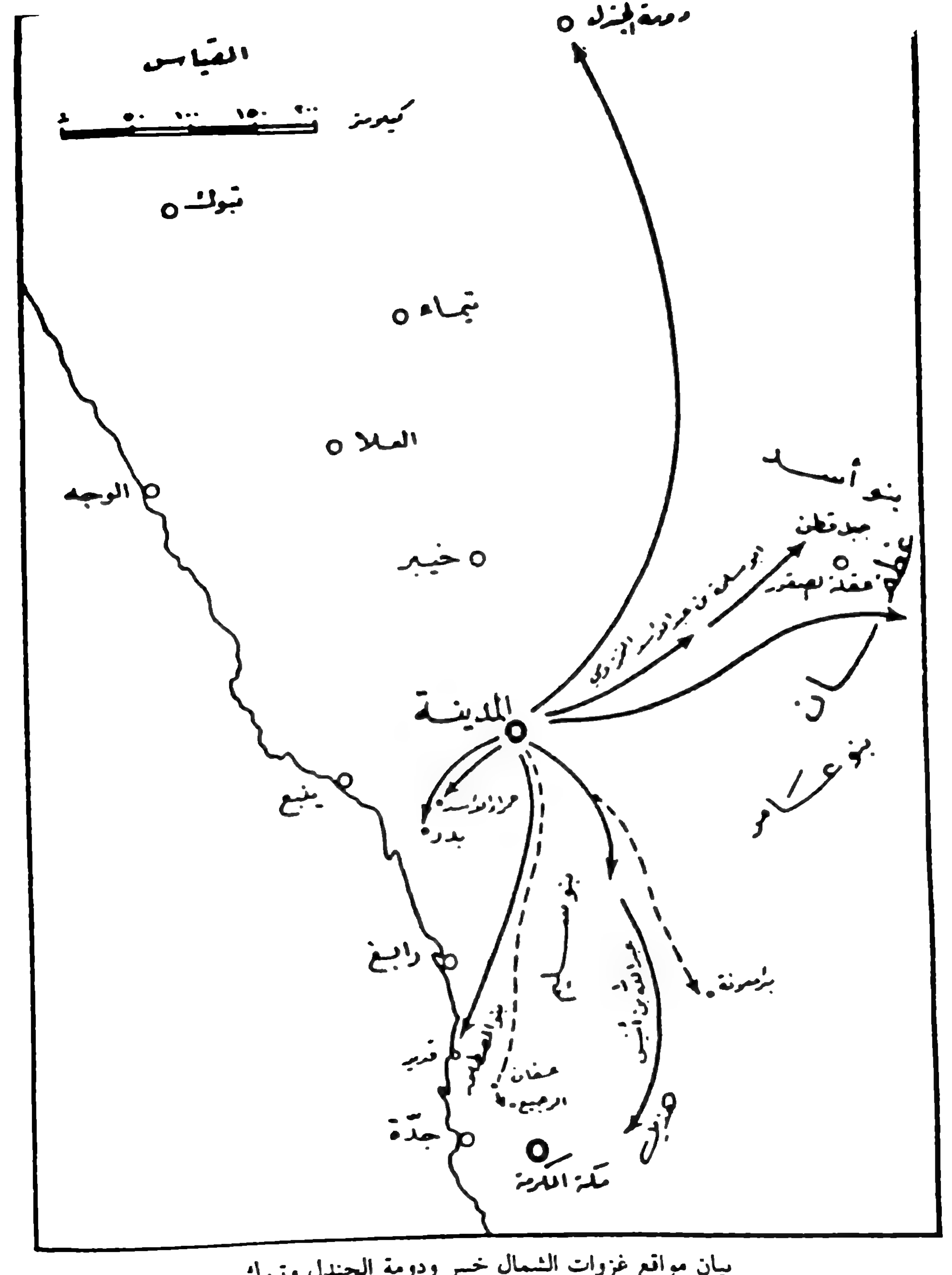
قدم جعفر في جماعة من المسلمين، من أرض الحبشة، وقدم الأشعريون أبو موسى وقومه بنو أشعر من بلادهم. رجع جعفر ومن معه بعد أن أقاموا في الحبشة نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين.

وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدمهم فرحاً عظيماً، وأعطاهم من مغانم خيبر.

وفي هذا الوقت قدم على النبي ﷺ أيضاً الدوسيّون عشيرة أبي هريرة رضي الله عنه، فأعطاهم أيضاً من مغانم خيبر.

جدول بياني عن غزوة خيبر

الجيش	العدد	العدة: السلاح	العدة: الركاب	النتائج: القتلى	النتائج: الجرحى	النتائج: الأسرى
جيش المسلمين	١٤٠٠ راجل ٢٠٠فارس	رماح سيوف غير مضبوطة	في حصن الصعب وجد الشعير وتمر وسمن والعسل وسكر وزيات ودوك» غير مضبوطة	٢٠ شهيداً وقيل ٣٤ شهيد وقيل ١٥ شهيد	٣	-
جيش المشركين	١٠٠٠٠ مقاتل صبحة كل يوم	غير محصيّة سيوف منجنيقات ودروع ودبابات ورماح	١٠٠ درع ٤٠٠ سيف ٥٠٠ قوس عربية ١٠٠٠ رمح	٩٣	عددهم كبير غير معروف	عددهم كبير غير معروف



بيان مواقع غزوات الشمال خيبر ودومة الجندل وتبوك

فتح فَدَك

وبعد تمام فتح خيبر، أرسل ﷺ من يطلب من يهود فَدَك [حصن قريب من خيبر] الانقياد والطاعة فاستجابوا وصالحوا رسول الله على أن يحقِنَ دماءَهم، ويترك الأموال.

وكان لهم ما طلبوا، فكان (فتح فَدَك) للمسلمين دون قتال.

فتح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء، أن المسلمين قد انتصروا على يهود خيبر، صالحوا النَّبي ﷺ على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين، فكان (فتح تيماء) صلحاً. وتيماء حصن بين المدينة المنوّرة والشام.

فتح وادي القرى

ثم دعا ﷺ يهود وادي القرى [منطقة تقع بين المدينة والشام] إلى الاستسلام، فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون، وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً، وكان (فتح وادي القرى) للمسلمين خاتمة الشرِّ اليهودي. كما كان بداية انقياد اليهود المجاورين للمسلمين. وبذلك ارتاح المسلمون من شرِّ عدوٍّ، كان يتربّص بهم الدوائر مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق.

ولكن الله ﷻ يؤيد الحق، فنصر المسلمين وأظفرهم بعدو الحق من اليهود وغيرهم.

سريَّة

وفي شعبان من السنة السابعة سيّرَ رسول الله ﷺ (سريَّة) بقيادة عمر بن الخّطاب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً، إلى جَمْعٍ من هوازن يُظهِرون العداوة للمسلمين، فسار إلى تربة [وادٍ بالقرب من مكة] حيث بلغ الخبر إليه أنهم تجمّعوا فيه، فلم يجدْ عُمَرُ بها أحداً فرجع.

سريَّة

ثم بعث بشير بن سعد الأنصاري في (سريَّة) لقتال بني مُرَّة، بناحية فَدَك، فلمّا ورد بلادهم لم يَرَ منهم أحداً، فأخذ نَعَمَهم، وانحدر إلى المدينة، لكنّ بني مرَّة كانوا في الوادي، فلحقوا بشيراً، وأدركوه ليلاً، فتراموا بالنبل.

ولّما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً، حتى استشهد غالبُ المسلمين، وجرح بشير جرحاً بليغاً حتى ظنّوه مات.

ولما انصرف عنه العدوّ، حمل جرحَه وجاء إلى المدينة وأخبر النبيَّ الخبر، فدعا له وترحَّم على الشّهداء.

سريَّة

وفي رمضان أرسل ﷺ غالب بن عبد الله الليثي، في (سريَّة) بمائة وثلاثين رجلاً، إلى المَيْفَعَةِ بناحية نجد، فانطلقوا حتى هجموا على القوم، فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين.

سريّة

ولّما رجع المسلمون إلى المدينة، كان رسول الله ﷺ قد هيّأ إلى (سريّة) أخرى، بعثها في شوّال، بعد أن بلغه عليه الصّلاة والسلام أن عُيَيْنَةَ بن حصن، قد واعد جماعة من غطفان، كانوا مقيمين قريباً من خيبر، للإغارة على المسلمين، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل، فانطلقوا إليهم يسيرون في الليل، ويستريحون في النهار، حتى أتوا منازلهم، فنالوا منهم، وأصابوا أنعامهم، وتفرّق الرّعاء، فأخبروا قومهم فخافوا وهربوا إلى الجبال، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين قد أسلما، ورجعوا إلى المدينة غانمين.

عمرة القضاء

ولما مضت سنةٌ على غزوة الحديبية، خرج ﷺ بالمسلمين الذين كانوا معه فيها ليقضي عمرته، فكانت (عُمْرَة القضاء) في السنة السابعة للهجرة، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق معه الهدي ستين بَدَنَةً (جملا)، وأخرج معه السّلاح حذراً من غدرِ قريش، فلما وصل إلى مكة، وقبل أن يدخلها، قابلَهُ نفرٌ من قريش، ففزعوا من هذه العدّة، وقالوا والله يا محمد ما عُرِفْتَ بالغدر صغيراً ولا كبيراً، وإنّا لم نُحْدِثْ حَدَثًا! فقال: إنّا لا ندخل الحرم بالسّلاح.

فدخل ﷺ وأصحابه متوشّحين سيوفَهم فقط، وفي المقدّمة عبد الله بن رواحه، وهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ

جنده، وهزم الأحزاب وحده. وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته، وأتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين.

كما رأى ﷺ في منامه، وكما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

الفَصْلُ الثَّامِنُ

السنة الثامنة بعد الهجرة

سريَّة

وفي السنة الثامنة، في صفر، أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الليثي، في (سريّة) إلى بني الملّوح، فساروا حتى إذا كانوا بقُدَيْد التقوا بالحارث الليثي، وكان عدواً لدوداً، فأسروه، ثم ساروا حتى وصلوا محلّة بني الملّوح، فاستاقوا النَّعَم، وخرج الصَّريخُ إلى القوم، فجاءهم عدد كبير جداً، ولكنّ الله نجّى المسلمين، فأرسل سيلاً قويّاً حال بينهم وبين عدوّهم، حتى صار المسلمون آمنين إلى المدينة المنوّرة.

سريَّة

ولّما رجع غالب إلى المدينة ظافراً، أرسلهُ ﷺ في (سريَّة) أخرى، في مائتي رجل ليقتصَّ من بني مرّة بفدك، وهم الذين قضوا على سريّةِ بشير بن سعد، فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم، خطبهم غالبُ، فقال، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأنْ تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنه لا رأي لمن لا يطاع».

ثم آخى بين رجاله، وقال: لا يفارق أحدكم أخاه، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري.

ولّما أحاطوا بالعدو، كبّر غالب، فكبّروا، وجرّدوا السيوف، فلم يفلت من عدوّهم أحد، وظفر بهم ورجعوا غانمين.

سـريَّة

وفي ربيع الأول، بعث ﷺ كعب بن عُمَير الغفاري، في (سريَّة) على رأس خمسة عشر رجلاً، إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، وقاتلوا، وكانوا أكثر عدداً، فاستشهدوا كلّهم إلا كعب فإنه نجا، وأتى بالخبر إلى رسول الله، فحزن لهم وترحّم عليهم.

غزوة مؤتة

معركة مؤته، أغزوة هي أم سريّة؟

هذا سؤال يُذكّرنا بأن المؤرخين قد اصطلحوا على تسمية المعركة التي حضرَها رسول الله ﷺ بالغزوة، والتي لم يحضرها بالسَّرِيَّة.

فهل حضر الرَّسولُ غزوةَ مؤتة أم لم يحضرها؟.

لم يحضر رسول الله ﷺ هذه الموقعة، ومع ذلك سمّاها المؤرخون غزوة، لخطرها وأهميتها، ولما كان فيها من أهوال، ولما أسفر عنها من نتائج، وللحشود العسكرية الكبيرة التي حشدها الكفار، ولأن النبيَّ ﷺ وصفها وهو بالمدينة كأنه حاضر فيها.

ولكن لنرى ما جرى قبل الغزوة.

بعد فتح حصون خيبر وما حولها من حصون يهوديّة، أقبل إلى المدينة المنوّرة ثلاثة أبطال، قد أسلموا واطمأنَّ الإيمانُ في قلوبهم، وهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العَاص، وعثمان بن أبي طلحة.

هؤلاء الثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش.

فسُرَّ بهم رسولُ الله سروراً عظيماً، وقال لخالد: «الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أرى لك عقلاً، رجوتُ أن لا يسلمك إلا لخير».

فقال يا رسول الله: أدعُ الله أن يغفر لي تلك المواطن، التي كنت أشهدها عليك. فقال ﷺ: «الإسلام يقْطَعُ ما قبله».

وفي جمادى الأولى، السنة الثامنة للهجرة، جهّز ﷺ جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسوله إلى أمير بصرى، وكانت عدّة الجيش المسلم ثلاثة آلاف.

وذلك أنَّه ﷺ أرسلَهُ بكتابٍ، فلمّا بلغ مؤتة، تعرَّض له شرحبيل بن عمر الغَسّاني، فقال له: أين تريد؟ قال الشام، قال: لعلك من رُسُلِ محمد؟ قال: نعم، فأمر به فضُرِبَتْ عنقُه.

ولم يُقْتَلْ لرسول الله ﷺ سفير غيره، وقد حزن الرسول لذلك حزناً شديداً.

فسيّر لهم جيشاً لتأديبهم، وأمّر على الجيش زيد بن حارثة، وقال لهم: إن أُصيب، فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

فساروا على بركة الله، وودّعهم رسول الله إلى خارج المدينـة، ووصّاهم كثيراً، وكان فيما وصّاهم به «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوّ الله، وعدوّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين، فلا تعرّضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً، ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناءً» ، وانطلقوا سائرين، ولم يزالوا حتى وصلوا مؤتة [قرية قريبة من الكرك في الأردن] حيث قُتل الحارث بن عمير حامل كتاب رسول الله، وهناكِ وجدوا الروم قد جمّعوا لهم جمعاً عظيماً منهم، ومن نصارى العرب.

فكان الجيش المعادي أكثر من مائة ألف مقاتلٍ روميٍّ وعربيٍّ موالي للروم.

فأقام المسلمون وعددهم ثلاثة آلاف، يتفاوضون فيما يفعلونه، لأن الجيش بالنسبة للأعداد الهائلة التي حشدها الرومان قليل جداً.

وفكّروا في أمرهم ليلتين، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا، فإما أن يمدّنا بالرجال، وإمّا أن يأمرنا بالرجوع، فنمضي له.

فشجَّعَ الناس عبدُ الله بن رواحة على المضيّ في الجهاد، فقال: «إنّ التي تكرهون للتي خرجتم لها، إيّاها تطلبون وهي الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا بكثرة ولا قوّة، وإنما نقاتلهم بهذا الدّين الذي أكرمنا الله به، فربّما فعل، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة، وليست بشرِّ المنزلتين» ، فقال الناس: صدق ابنُ رواحة، ومضوا للقتال، فلقوا هذه الجموعَ المتكاثرة، التي لا قِبَلَ لأحدٍ بها، من العدد الزائد.

والتقى الفريقانِ غير المتكافئين [عدداً وعدّةً]: ثلاثة آلاف مقاتل مسلم بسلاح بسيط، لكنه يحمل قوة الإيمان بالله تعالى: والعمل الصالح، والدّفاع عن الحق.

ومئتا ألف مقاتل بسلاح كثير وخيل وآلات حرب، يعزمون على القضاء على دين الله الإسلام.

فقاتل الأمراءُ الثلاثة يومئذ بشجاعة خارقة، أخذ اللواءَ زيدُ بن حارثة، وقَاتل المسلمون معه بشجاعة، وانقضّوا على صفوف العدوّ، وقاتل زيد بن حارثة قتالاً شديداً، حتى سقط شهيداً طعناً بالرّماح.

ثم أخذ اللواء جعفرُ بن أبي طالب، وهو يقول:

يا حبّذا الجنّة واقترابُها	والرّومُ رومٌ قد دنا عذابُها
طيّبةٌ وباردٌ شرابُها	كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذ لاقيتُها ضرابُها

ولم يزل يقاتل ويصابر ويجالد حتى استشهد على مراحل: قطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره، فاحتضنه بعضديه، وتكاثروا عليه، وقاتل حتى كتب الله له الشهادة، ووُجِدَ فيه بضْعةٌ وسبعونَ جرحاً، ما بين ضربةٍ بسيفٍ وطعنةٍ برمح، ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة، وتقدّم به، وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ويتردّد بعض التردّد فخاطب نفسه مرتجزاً:

أقســـمتُ يـــا نفـــسُ لتنزلنّـــه
مـــالي أراكِ تكـــرهينَ الجنَّـــة
طـائعـــــةً، أو لتكرهنَّــــــــهُ
قـــد طالمـــا كنـــت مطمئنـــةً
إنِ أجْلـــبَ النـــاسُ وشـــدّوا الرنَّـــة
هـــل أنـــتِ إلاّ نطفـــةٌ في شـــنّة؟!

ثم اقتحم بفرسه الصفوف المعادية، ولم يزل يقاتل حتى استشهد.

فهمَّ بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء، فقال لهم عتبةُ بن عامر:

يا قوم، يقتل الإنسان مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً، فأخذ الراية ثابت العجلاني البلّوي حليف الأنصار، وكان من أهل بدر، فقال:

يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. أي اجعلوا قائداً لكم، فقالوا: أنتَ، قال: ما أنا بفاعل.

فاصطلَحوا على خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، فقاتل قتالاً شديداً، وكان قد تفرّق المسلمون بعد مقتل ابن رواحة، وانهزموا حتى لم يُرَ اثنان جميعاً، فاستطاع خالد بن الوليد بعد أن أخذ اللواء وتولّى القيادة، أن يجمع شملَهم، وحمى الجيش من الضّياع، إذ ما تفعل ثلاثةُ آلاف بمائتي ألف.

فأخذ يفكّر بإنقاذ الجيش، فصار يرتّب العسكر ترتيباً جديداً.

فجعل السَّاقة[1] مقَدَّمَةً، والمُقَدَّمَة ساقةً، والميمنـةَ[2] ميسرةً، والميسرة ميمنة. فظن الروم أن المدّ جاءَ للمسلمين فرُعِبوا.

---

[1] السَّاقة: مؤخرة الجيش.

[2] الجانب اليميني.

ثم أخذ خالد يسحب كتلة كتلة إلى الوراء، دون أن يشعر العدوّ بالانسحاب، حتى انحاز إلى مؤتة، ثم مكث يناوش الأعداد الهائلة سبعة أيام، بأن يخرج عدد قليل من الفرسان فيتعاملوا مع العدوّ بالكرِّ والفرّ، فرأى الأعداء فنّاً جديداً بالقتال، ما عرفوه من قبل، فأقلقهم ما استجدّ عليهم، وظنّوا أن الأمدادَ تتوالى للمسلمين. كما أمر خالدٌ جماعاتٍ بإثارة الغبار من بعيد.. فصار التوقف عن القتال يفشو شيئاً فشيئاً، حتى تحاجز الفريقان عن القتال، لأن الكفّار خافوا أن يجرّهم المسلمون إلى وسط الصحاري حتى لا يمكنهم التخلّص، لأن عمل جيش المسلمين بالقتال اعتمد على استجرار العدوّ من ميدانه.

فانقطع القتال، والجيش المسلم يدافع، حتى انحاز وانصرف.

وانسحب الجيش بالأسلوب الموفّق بعد أن استشهد عدد منهم، وقتل من الكفار عدداً كبيراً لا يعلمه إلا الله تعالى.

وأما المسلمون في المدينة فقد كانوا قلقين على الجيش المسلم ذي العدد القليل والعدّة القليلة، وهم يعلمون أن عدوّهم الروم ومن معهم، لا يُسْتَهان بهم، فكانوا يترقّبون الأخبار، ولا خبر عنهم.

فكان المُخْبِر الأوحد لهم رسول الله ﷺ، نادى في الناس الصلاة جامعة، فتجمّع الناس في المسجد.

ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان، فعلموا أن أمراً عظيماً وقع، قد أبكى النبيّ ﷺ، فقال يصف المعركة: «يا أيها الناس باب خير، باب خير. أخبركم عن جيشكم

إنهم انطلقوا فلقوا العدوّ، فقتَلَ زيدٌ شهيداً، ثم أخذ الراية جعفر فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيداً، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قُتل شهيداً، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، لكنه سيف من سيوف الله فآبَ بنصره» أي رجع بالنصر، فكبّر المسلمون بالمسجد، حتى ارتجّت جنبات المسجد طرباً وسروراً بهذا الفوز الكبير، مع أنّه ﷺ نعى إليهم وفاة الأبطال، لأنهم يعلمون (إن استشهاد الأمراء الثلاثة شرف كبير لهم أوّلاً، وإرسال جيش مؤتة أمر لا بُدّ منه ثانياً، لا بد منه لإعلام الأعْراب والروم على حدٍّ سواء، لأن الإسلام حريص على ألا تُنتَقَصَ هيبتُهُ في أيِّ ناحية)[1].

ولذلك اعتبر المؤرّخون غزوة مؤته نصراً للمسلمين واضحاً، لعدم إطاحة العدوِّ بهم، تكاثر الأعراب والروم عليهم، فكان مقتضى الحال أن يُقتَلوا بالكلّية، ولكن كتبَ الله للجيش العودة، بعد أن نال عزّة الشهادة بعضُهم، وكرامة النجاة الآخرون.

ولما أقبل الجيش إلى المدينة، قابلهم الرسول ﷺ وهو يقول: «بل هُمُ الكُرّار»، يعني بذلك إن ظنَّ الناس أن انحياز خالد بالجيش هزيمة وفرار فلا يظنّون ذلك، بل هم الكرّار، وبينّ ﷺ أن ذلك من مكايد الحرب، وأثنى على خالد في مهارته وناداه: يا سيفاً من سيوف الله.

---

[1] في التاريخ الإسلامي / د. شوقي أبو خليل ص١٥٨/ .

وذهب رسول الله ﷺ يواسي آل جعفر، فرآهم يبكون، فقال: «على مثل جعفر فلْتَبْكِ البواكي» ثم قال: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم» وبكت فاطمةُ بنت عميس زوجَها جعفراً، لأنَّ أولادَها صغارٌ حولها يبكون، فقال ﷺ: «العَيْلَةَ»[1] تخافين عليهم، وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة وقال ﷺ عن الشهداء: «لقد رُفعوا إلى الجنة على سُرُرٍ من ذهب..».

فكيف كان ردّ المسلمين بعد غزوة مؤتة، على الرومان والقبائل العربية المتنصّرة، التي آزرت أعداء الحقّ على المسلمين؟

لم يلبث المسلمون طويلاً بعد مؤتة حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا.

---

[1] الفقر.

جدول بياني عن غزوة مؤتة

الجيش	العدد	العُدَّة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	٣٠٠٠	لم أجد إحصاء لسلاح المسلمين	لم أجد إحصاء لعدد الركاب مع جيش المسلمين	١٢ شهيداً	عشرة أضعاف الشهداء كما ذكرت بعض الكتب	-
جيش المشركين	أكثر من ٢٠٠٠٠٠ على خلاف بين الروايات	سلاح كامل بعدد الجيش	الذي ورد أن ركاب الجيش كامل وعدده كبير جداً	٢٤ قتيلاً	لم تذكر المصادر عدد الجرحى في صفوف المشركين	-

سرية ذات السلاسل

سرية ذات السلاسل وقوامها ثلاث مئة رجل. حدثت في جمادى الآخرة، أي بعد شهر من غزوة مؤته.

لقد أرسل ﷺ عمرو بن العاص إلى بلاد بَلِيَ وعُذْرَه

[وهي على بُعْدٍ من المدينة بمسيرة عشرة أيام] وبِلى وعذْرَه قبيلتان عربيتان تنسبان إلى قُضاعة.

وسببها أنه ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة تجمّعوا للإغارة على المسلمين، وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة غازين، منتهزين تراجع المسلمين في غزوة مؤته.

سميت ذات السلاسل لأن الأعداء ربط بعضهم ببعض، حتى كان جمعُهم متصلاً ببعضه كالسلاسل، ففعلوا ذلك مخافة أن يهربوا من وجه المسلمين أثناء اللقاء، فإذا فكر أحدهم بالهرب فإن الرباط يمنعه.

وقيل: إن المكان الذي كانت به المعركة فيه ماءٌ يسمّى السلسل.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص قائد السريّة لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء.

فانطلق هو ومَنْ معه، وكان يكمُن بالنهار ويسير بالليل، فلمّا قرب منهم، رآهم جموعاً كثيرة.

فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده برجالٍ آخرين.

فبعث إليه ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح، وعقد له لواء، ومعه مئتا رجل وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وأمره ﷺ أن يكونِ مع عمرو، وانطلق حتى بلغ مُقَام العدو، فاجتمعا، وانضم المسلمون تحت راية عمرو، وحملوا على الكفار حملة واحدة فهربوا في البلاد وتفرقوا مذعورين.

وكان في هذه الغزوة تعزيزٌ لنفوذ الدولة الإسلامية على تخوم الشام. ثم عادوا إلى المدينة.

سريّة سِيْف البحر أو سريّة الخبط

كانت بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح، في شهر رجب سنة ثمان للهجرة.

قوامها ثلاث مئة رجل، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعثهم ﷺ لمحاربة حيّ جُهينة الذين أعلنوا العداوة للإسلام، ولاعتراض قافلة لقريش.

فانطلقوا حتى وصلوا سِيْف البحر، أي ساحله، فواجهوا مشقّة زائدة مما أتعبتهم، ونفد ما معهم من الزّاد، فأكلوا الخبط، وهو ورق شجر السَّلَم، وأصابهم جوعٌ شديد.

فأخرج الله لهم من البحر دابّة تسمى العنبر، وهي سمكة كبيرة، فأكلوا منها.

وأقاموا نحو أسبوعين ينتظرون العدوّ، ولمّا يئسوا من لقاء عدوّهم رجعوا إلى المدينة.

سريّة أبي قتاده

سرية أبي قتادة إلى نجد، ليشنّ الغارة على غطفان بأرض مُحارب.

أرسله ﷺ مع خمسة عشر رجلاً، في شعبان، فسار إليهم، وقاتلهم، وسبى سبياً كثيراً، واستاق النعم، وعاد إلى المدينة.

سريّة إضم

سريّة إضم بقيادة أبي قتادة أيضاً. في أول رمضان، بعثه على رأس ثمانية رجال إلى قبيلة إضم، وكان ذلك بعد أن نقضت قريش العهد، حتى يفاجِئَهم على غير استعداد منهم لحربه. لكن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا حرباً، ورجعوا إلى المدينة، فوجدوا النبي ﷺ قد خرج إلى مكّة فاتحاً، فلحقوا به.

فتح مكة

في رمضان سنة ثمان للهجرة، انطلق جيش المسلمين بعشرة آلاف مقاتل، يقوده النبيُّ محمّد ﷺ، الذي اشتاق إلى فتح مكّة.

فتح مكة يعني نقل العرب من العشائرية إلى الأمّة الواحدة.

ونقلهم من الجاهلية والوثنيّة إلى التوحيد المطلق لله وحده.

ونقلهم من ضيق الجزيرة إلى فسيح العالم.

ولهذا بُعِثَ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وكان ﷺ يعلم أنه لا يخضع له كل العرب حتى تخضع قريش، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكّة.

فكان يتشوّف لفتحها، وكان يمنعه من ذلك العهود بينه وبين قريش في الحديبية.

لكنَّ قريشاً نقضت العهد، بأن وقف رجل من بني بكر [حلف قريش] يتغنّى بهجاء رسول الله ﷺ على مَسْمَعِ رجل من بني خُزاعة [حلف الرّسول] فقام الخزاعيُّ وضربَ البكريَّ، فشدّ بنو بكر لحرب بني خزاعة، واستعانوا بحلفائهم من قريش.

فأعانوهم سرّاً بالعدّة والرجال، وتوجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا ما يزيد على عشرين خزاعياً.

فأرسل بنو خزاعة يخبرون حليفهم النبيّ ﷺ، فلمّا أخبروه الخبر، قال: «والله لأمنعنّكم مما أمنع نفسي منه» فلما رأت قريش أنَّ ما عملَتْه نقضٌ للعهد مع

الرسول ﷺ، ندموا على ما فعلوا، وأرادوا رتق هذا النقض، فبعثوا أبا سفيان إلى المدينة، فركب إلى النبيّ ﷺ وهو يظنّ أنه لم يسبقْهُ أحد، حتى جاء المدينة، وأتى النبيَّ في المسجد، وعرض عليه أن يزيد في مدة هذه الهدنة (عقد الحديبية) فقال عليه الصلاة والسلام: «هل كانَ مِنْ حَدَثٍ»؟

قال: لا. فقال: «فنحن على مدّتنا وصلحنا» ولم يزد عن ذلك.

فرجع أبو سفيان ولم يصنع شيئاً.

أما الرسول ﷺ فقال لأبي بكر رضي الله عنه عن قريش: «غدروا ونقضوا» وأمر ﷺ بالتجهّز للسفر دون الإعلام بجهته.

واستنفر الناس لذلك، وأصدر تعميماً: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضرْ رمضانَ بالمدينة».

فقدم جمع من القبائل المسلمة، وكتم ﷺ الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر، فتعلم قريش فتستعد للحرب. والرسول ﷺ يريد فتح مكة دون حرب.

ومع هذه السِّرِّيَّة المتناهية، فإنّ حاطِبَ بن أبي بلتعة، كتب رسالة لقريش يخبرهم بأمر رسول الله ﷺ، وبعث الكتاب مع امرأة لتوصله إلى قريش على عجل.

فأخبر اللهُ رسوله بذلك، فأرسل في أثرها ثلاثة نفر، فلحقوا بها حتى قبضوا عليها في روضة خاخ، فقالوا لها: أخرجي الكتاب.

قالت: ما معي كتاب، فهددوها، فأخرجته من ضفائرها، فأتوا به رسول الله ﷺ. ثم سار عليه السَّلام بهذا الجيش العظيم، في منتصف رمضان، بعد أن ولّى على المدينة ابن أمّ مكتوم. وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد.

ولما وصل عليه الصلاة والسلام القُدَيْد رأى أن الصَّوم شقّ على المسلمين فأمرهم بالفِطْر.

وقد قابل في الطريق عمَّه العبَّاس مهاجراً بأهله وعياله، قد أسلم، فأمر أن يرافقه إلى مكّة وتُرْسَلَ عياله إلى المدينة.

ولما وصل جيش المسلمين إلى مُرّ الظّهران، أمر ﷺ بإشعال عشرة آلاف نارٍ، وهذا من حرب الأعصاب، وكان قد بلغ قريشاً أن محمَّداً زاحف بجيش عظيم.

فدبّ الرعب في قلوب الكفّار، فبعثوا أبا سفيان، وحكيم بن حزام وبُدَيل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران فإذا هم يرون نيراناً كثيرة، فقبض عليهم حرسُ رسولِ الله وساقوهم إلى النبيِّ ﷺ.

فأسلم أبو سفيان، فلما سار، قال ﷺ للعباس: إحبس أبا سفيان حتى ينظر إلى جيش المسلمين وقوّتهم، فحبسه، فَجَعَلَتْ كتائبُ الجيش تمرّ عليه كتيبة كتيبة، ومرّ به سعد بن عبادة فقال: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة.

ولّما مر رسول الله ﷺ على رأس كتيبة، قال أبو سفيان يخبرهُ بمقالة سعد، فقال له النبيّ ﷺ: «ولكنْ هذا يوم يعظّم الله فيه الكعبة».

وأمر ﷺ أن ترتكز رايته بالحجون، جبل يقع في الجهة الشمالية من الكعبة المشرفة.

وأمر ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من الجهة الجنوبية من الكعبة المكرمة.

ودخل ﷺ من كُداء [أعلى مكة] ونادى مناديه مَنْ دخلَ دارَه وأغلق بابه فهو آمن.

ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وهذه أعظم منّة له.

ونهى ﷺ عن قَتْلِ أَحَدٍ إلا مَنْ قاتل.

فأما جيش خالد فقابله نفر من قريش، يريدون صدَّه، فقاتلهم وقُتِلَ منهم أربعة وعشرين، وقتل من جيشه اثنان، ودخل مكّة من هذه الجهة عنوة.

وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يواجه قتالاً، وهو راكبٌ راحلتَه مُنْحَنٍ على الرَّحل تواضعاً لله، وشكراً على هذه النهمة. وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان، حتى وصل إلى الحُجون موضع رايته، وقد نصبت له هناك خيمة فيها ميمونة وأم سلمة زوجتاه.

فاستراح قليلاً، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح حتى إذا بلغ البيت (الكعبة)، وطاف سبعاً على راحلته، واستلم الحجر الأسود، ونظر ﷺ فوجد ثلاث مئة وستين صنماً حول الكعبة، فجعل يطعنها

بعصا ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ويقول: «جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» وأذّن له بلال على ظهر الكعبة، ثم أمر ﷺ بالأصنام فأخرجت من البيت وطرحت.

وهذا أوّل يوم طهرّت فيه الكعبة من الوثنية، ومن هذه المعبودات الباطلة، وبهذا سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب.

وماذا فعل النبي ﷺ بكبراء قريش؟

إن النبيّ ﷺ دخل الكعبة، وكبّر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلّى فيه، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، والناس حوله.

وعيون الكبراء والرؤوس من قريش شاخصة تنتظر ما يُفعل بها، وهم الذين آذوه، وأخرجوه من وطنه وقاتلوه، وتآمروا على قتله فقال ﷺ: يا معشر قريش ما تظنّون أني فاعل بكم؟

فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهنا ظهرت ـ كما تظهر منه كلَّ حين ـ مكارمُ الأخلاق. فعلُه كلُّه جميل، وهل ينضح إلا بما حواه الإناء؟

ثم خطب عليه الصلاة والسلام خطبة أبانَ فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية، منها:

لا يقتل مسلم بكافر.

ولا يتوارث أهل ملّتين مختلفتين.

ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها.

والبيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر.

ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم.

ولا صلاة بعد الصبح والعصر.

ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر.

والناس من آدم وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ /الحجرات: ١٣/.

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام.

وتوقّعت الأنصار أن يبقى النبيُّ ﷺ بمكة بعدما فتحها.

فأخبرهم أن المحيا محياهم، وأن الممات مماتهم.

ووفد إلى رسول الله ﷺ كعب بن زهير الشاعر بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فأسلم وأنشد قصيدته المشهورة بالبردة، التي يقول فيها:

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتُه ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

نُبِّئْتُ أن رسولَ الله أوعدني ... والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

إن الرسول لَنُورٌ يُستضاءُ به مُهنَّد من سيوفِ الله مسلولُ

ثم جاء إلى النبيّ ﷺ النساء فبايعْنه على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصين الله ورسوله في معروف.

بايع النساءُ رسولَ الله ﷺ في اليوم الرابع من فتح مكة.

ومكث النبي ﷺ تسعة عشر يوماً.

وفي اليوم الخامس من مُقامه بمكة، بعث خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى، وهو أكبر صنم لقريش.

وكان هيكلها ببطن نخلة، فتوجه إليها خالد وهدمها.

كما وأرسل عمرو بن العاص لهدم سُوَاع، وهو أكبر صنم لِهُذَيل فذهب إليه وهدمه. وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لبني كلب وخزاعة، فتوجّهوا إليها وهدموها.

إن فتح مكّة فيه من الدروس والعظات ما تضيق عن شرحه الكتب الكثيرة. ومن هذه الفوائد الكثيرة نقول: في فتح مكّة نجد طبيعة الرسول ﷺ طبيعة الدّاعيةِ الصادقة. الذي لا يجد الحقد على مقاوميه إلى نفسه سبيلاً.

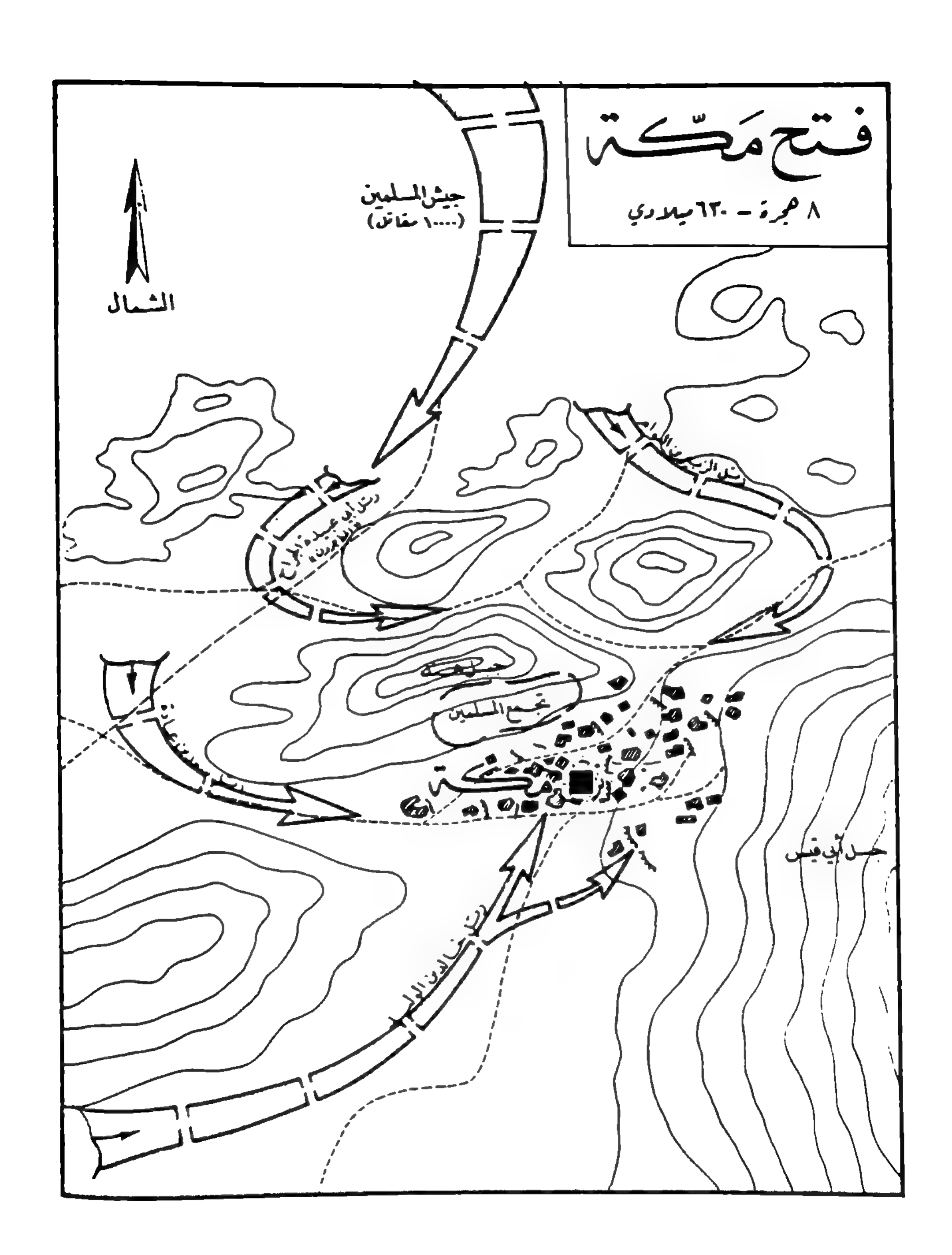
فقد منّ عليهم بعد كفاح استمرّ بينه وبينهم إحدى وعشرين سنة، لم يتركوا فيها طريقاً للقضاء عليه وعلى أصحابه وعلى دعوته إلا سلكوها، فلما تمّ

له النصر عليهم، لم ينتقم، بل استغفر لهم وأطلق لهم حريتهم، لأنه ﷺ هادٍ وفاتح، ولهذا دخل مكة خاشعاً شاكراً لله، لا يزهو كما يفعل عظماء الفاتحين.

وفيما فعله ﷺ مع أهل مكة حكمة أخرى، فقد أعلم اللهُ أن العرب سيكونون حملة رسالته إلى العالم، فأبقى على حياة أهل مكة وهم زعماء العرب ليدخلوا في دين الله، ولينطلقوا بعد ذلك إلى حمل رسالة الهدى والنور إلى الشعوب، يبذلون في سبيلها من أرواحهم وراحتهم ونفوسهم ما أنقذ تلك الشعوب من عمايتها وأخرجها من الظلمات إلى النور.

جدول بياني عن غزوة فتح مكة

الجيش	العدد	العُدّة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	١٠٫٠٠٠	عدة كاملة	غير مضبوطة	٣ شهداء	-	-
جيش المشركين	استنفرت كل المشركين في مكة	عدة كاملة	-	١٣ قتيلاً	-	-



فتح مكّة
٨ هجرة - ٦٣٠ ميلادي
جيش المسلمين
(١٠٠٠٠ مقاتل)
الشمال
رتل أبي عبيدة الجراح
تجمع المسلمين
مكة
جبل أبي قبيس
رتل خالد بن الوليد

سريّة جَذِيمة

و في شوال سنة ثمان كانت سريّة جَذِيمة بقيادة خالد بن الوليد يدعو فيها إلى الإسلام قبيلة بني جذيمة من كنانة من ناحية يَلَمْلَمْ.

فخرج في ثلاث مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فانتهى إليهم خالد: فقال: من أنتم؟

قالوا: نحن مسلمون، قد صلينا وصدّقنا بمحمد ﷺ، وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذنّا فيها.

قال: فما بالُ السَّلاح عليكم؟

فقالوا: إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح.

قال: فضعوا السّلاح، فوضعوه، وأسرَهم خالد، وفي السَّحَرَ قتل بعضُ رجاله رجالاً منهم.

فلمّا وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ استاء ممّا فعلوه، وقال: «اللَّهم إنّي أبرأ إليك مِنْ صُنْع خالد» أي أعتذر إليك يا الله مما صنعه رجال خالد من قتلٍ وأَسْرٍ خَطَأً.

لأنّ النبيّ ﷺ بعثه ولم يأمرْه بقتال، ولكن بعثه داعياً إلى الإسلام.

وهؤلاء قد أعلنوا إسلامهم، لكنّ خالداً ظنّ أنهم يخدعوه، فلم يقبل قولهم وإقرارَهم بالإسلام، فأسرهم.

ولمّا رجع إلى النبيّ ﷺ لم يُخفِ عنه النبيُّ ﷺ استياءه مما فعل، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمالٍ إلى بني جذيمة، ودفع إليهم ديات القتلى، وردّ إليهم ما أُخِذَ منهم، وقال لهم عليٌّ: انظروا إن فقدتم عقالاً لأعطينّكم بدلاً عنه، فبهذا أمرني رسول الله ﷺ.

غزوة حُنَيْن

كانت غزوة حنين في ١٠ شوال سنة ٨ هـ.

حنين وادٍ في طريق الطّائف، إلى جنب سوق ذي المجاز، بينه وبين مكّة ثلاث ليال، وتسمّى (غزوة أوطاس) اسم لموضع كانت به الموقعة، وهو وادٍ في ديار بني هوازَن، لهذا يجوز أن تسمّى (غزوة هوازن) وهوازن اسم قبيلة كبيرة من العرب فيها عِدْة بطون، كانت من خصوم النبيِّ ﷺ في هذه الغزوة.

وسبب هذه الغزوة: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، خافت أشراف هوازن وثَقيف أن يسير إليهم، ويغزوهم.

فعزموا على قتاله قبل أن يقاتلهم.

ويقال: إِنّهم كانوا يستعدّون للقتال قبل الفتح، وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه يريدهم، فأسندوا الرّياسة

والقيادة إلى مالك بن عوف وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة.

فاجتمع إليهم من القبائل جموع كثيرة، منهم: بنو سعد بن بكر، وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم.

وكان دريد بن الصمه قد خرج معهم وهو رئيس بني جشم وسيدهم، وكان شجاعاً مجرّباً، لكنه كان شيخاً هرماً، وتجاوز مائة وعشرين سنة، وقد عمي وصار لا يُنتفعُ إلا برَأيه وخبرته ومعرفته بالحروب.

ومعهم كنانة بن عبد ياليل قائد ثقيف، وكانت قوتهم واستعدادهم حاضرة، وأمرَهم قائدهم مالكُ أن يسوقوا معهم إلى الحرب كل شيء: المواشي والأموال والنساء والذراري، كي يثبتوا ولا ينهزموا. فلمّا نزلوا بأوطاس، قال دريد: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشّاء، وخوار البقر؟

فقيل له إن مالك بن عوف ساقهم إلى القتال. فاستدعاه، فلما جاءَهُ سأله؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله يقاتل عنهم، ألا ترى قوة محمّد لا تنهزم، وبأسه يفلّ الحديد؟

فلم يعجب دريداً رأيه، وأشار عليه بردِّ الذّرّية والأموال، فلم يقبل مالك، ورماه بضعف الرأي، لكبر سنِّه، ثم أمر مالك بالخيل فجعلت صفوفاً، ثم جعل النساء فوق الإبل، وراء المقاتلين صفوفاً، ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كيلا يفرّوا ولكي يقاتلوا بحمية عن مالهم ونسائهم وذراريهم، ثم

قال للجيش: إذا رأيتموني شددت عليهم فشدّوا عليهم شدّة رجل واحد.

وكان جملة من اجتمع من بني سعد وثقيف أربعة آلاف وانضم إليهم من سائر العرب جموع كثيرة، وكان جموعهم كلهم عشرين ألفاً، وكان رجال قبيلة هوازن رماة مهرة اشتهروا بذلك.

وكم هي قوّة المسلمين واستعدادهم؟

كان مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفاً وهذا أكبر عدد بالنسبة لأعداد الجيوش السّابقة التي قادها الرسول ﷺ، لهذا قال بعضهم: (لا نُغْلَبُ اليومَ من قِلَّة) ولما علم كثرة الجيش الكافر، وقوّة عدّتهم من رماح ودروع وسهام، أرسل إلى صفوان بن أمية يستعير دروعاً، فأعطاه أربع مئة درع، واستعار من نوفل بن الحارث، ابن عمّه ثلاثة آلاف رمح، وقال له كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصم ظهر المشركين.

فخرج ﷺ يوم السبت ٦ شوال، وجيشه ما بين راكب وماشٍ، وفيه عشرة آلاف من المسلمين السابقين عن فتح مكة من المدينة المنورة وغيرها، وألفان من مكة، الذين أسلموا حديثاً، ومنهم من لم يَكْمُل إسلامه بعد ويتمكن الإيمان من قلبه، ولما اقترب رسول الله ﷺ من مكان العدو، رتّب أصحابه وصفّهم للقتال، ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار على التشكيل التالي:

- لواء المهاجرين مع علي بن أبي طالب، ومعه رايتان:

راية لعمر بن الخطاب، وراية لسعد بن أبي وقاص.

- ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر.

- ولواء الأوس مع أُسيد بن حضير.

ورتّب قبائل العرب، ووزّع عليهم الألوية والرايات.

ولبس رسول الله ﷺ درعين (قميصين من حديد فوق بعضهما). ووضع على رأسه البيضة (الخوذة).

والمغفر (غطاء حديدي على الرقبة والخدّين) وركب بغلته (دُلْدُلَ) وجعل في مقدمة الجيش بني سليم بقيادة خالد بن الوليد.

ولا يعلم كلٌّ من الفريقين خِطَطَ الآخر في الحرب على وجه الدّقة.

أو قد يعلم كلٌّ فريق خطة الآخر بحسب نشاط الجواسيس، فلقد أرسل مالكُ بن عوف قائدُ الكفّار، ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين، فرجعوا خائفين، فلما رآهم مالك مذعورين قال لهم: يا جبناء، وحبسهم عن الناس كي لا يشيعوا في صفوف جيشه الذعر والرعب، فتخور هممهم. وأرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه، وأمره أن يدخل في جيش العدو، ويسمع منهم ما عزموا عليه.

فنفّذ أمر النبيّ ﷺ، ومكث بينهم يوماً أو يومين.

ثم رجع إلى النبي ﷺ وأخبره أنه وصل إلى خيمة قائد الكفّار مالك بن

عوف، وعنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لهم: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قَبْلَ هذهِ المرّة عندهم دراية بالحرب. وإنما يلقى قوماً لا علم لهم بالحرب، فينتصر عليهم، فإذا كان السَّحَرُ، فصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم مِن ورائكم، ثم صفّوا جنودكم صفوفاً، ثم تكون الحَمْلة منكم، وجرِّدوا سيوفكم، فتلقّوهم بعشرين ألف سيف، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً. وفاتَ الرَّجُلَ الذي بعثه النبيُّ عَيْناً أن يسمع خطته في الكمين الذي نصبه مالك بن عوف للمسلمين.

وفي اليوم الثاني تحرّك الجيشان للقاء، ولما كان رسول الله ﷺ بوادي حنين، وانحدر فيه، وذلك عند غبش الصبح، خرج عليهم الكفار من خلف الجبلين، عن اليمين والشمال، وكانوا قد كمنوا لهم في الشِّعاب والوادي والمضائق، عملاً بإشارة دريد بن الصمّه، وكانوا رماة مهرة قلّما يخطئ رميُهم.

فحمل المسلمون عليهم بقوّة، وناضلوا وكافحوا حتى استطاعوا أن يردّوا هجمة الكمين الأوّل وينقلب الرماة خاسرين.

وانكشف المشركون، فهرب من هرب، وقتل من قتل.

فشغل المسلمون بالغنائم وتركوا الاستعداد لأيّ مفاجئة، فإذا بالعدو يستقبلهم بحملة من الرماة كبيرة، وأمطروا المسلمين بالسهام الغزيرة، فانكشف خيّالة المقدمة من بني سُليم، فانهزموا وكان النبيّ ﷺ في وسطهم، فلم يبق معه إلا أصحابه كأبي بكر والسّابقين إلى الإسلام.

ولما رأى الناس هزيمة البعض تبعوهم، فلم يصمد إلا النبي ﷺ وبعض صحابته، وقد ثبت رسول الله ﷺ كما ثبت في غزوة أحد، وكان ثباته سبباً في كسب المعركة.

فقد انحاز ذات اليمين، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس، والفضل وأبو سفيان بن الحارث، وأسامة بن زيد، وربيعة بن الحارث، وعتبة، ومعتب، وأيمن بن أم أيمن، وغيرهم لم يتجاوزوا المائة...

وكان رسول الله يهجم نحو هوازن، وهو على بغلته يقول:

أنا النبيُّ لا كذبْ　　　أنا ابن عبد المطلبْ

وأخذ حفنة من تراب فرماها في وجوه العدوّ قائلاً: الله أكبر، شاهت الوجوه.

فانهزم المشركون، وجاء النصر بعد الهزيمة بأمر الله تعالى، والتفت رسول الله إلى ما حوله، فلم ير إلا القليل من المسلمين، فقال لعمّه: نادِ للمسلمين وكان العباس جهوريّ الصوت، فناداهم، فأقبلوا كأنهم النّياق الولود إذا حنَّت على أولادها، وصاروا يتجمّعون خلف قيادة النبيّ ﷺ، فأمرهم أن يصدقوا الحملة على العدوّ.

فانقضّوا انقضاض الليوث، فاقتتلوا قتالاً شديداً، واحتدم العراك فقال رسول الله: «والآن حمي الوطيس»، كناية عن شدّة المعركة، فولّى المشركون الأدبار، والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم. وهم يقولون: الله أكبر، الله أكبر.

وتتبّع المسلمون فلول العدوّ، فانتصر الحق وهزم الباطل.

ولكن القتال كان ضارياً، وفيه جرح خالد بن الوليد جراحات بليغة أثقلته، فتفل النبي ﷺ في جرحه فبرئ.

وكان النصر حليف المسلمين، وقتل كثير من الكفّار منهم دريد بن الصمّه، وأُسِر ستة آلاف شخصٍ، وكانت غنائم المسلمين كثيرة، من الإبل والغنم والأموال.

وقسم رسول الله الغنائم، فأعطى المؤلّفة قلوبهم، وهم من أسلم جديداً. وكانت أسهم المسلم من هذا الجيش كثيرة.

وقبل أن يقفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة قدم وفدٌ من هوازن وفيهم أبو برقان عمّ النبي ﷺ من الرّضاعة، وهو من بني سعد، وقد جاءوه مسلمين. فسألوه أن يمنّ عليهم ويردّ ما سباه من النساء والذراري.

فرضي رسول الله ﷺ، ورضي المسلمون بما رضي به رسول الله، وردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم.

كما أسلم مالك بن عوف رئيس هوازن، وقدم على النبيّ ﷺ فردَّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائةً من الإبل، واستعمله الرسول أميراً على من أسلم مَنْ قومه.

ولّما انتهى رسول الله من قسم الغنائم، جاء بعض الذين في قلوبهم مرض إلى الأنصار، وقالوا لهم: أرأيتم كيف يعطي أبو القاسم الأموال لقريش أهله وعشيرته وأهل مكة؟

تكلّموا في ذلك وقالوا: حَنَّ الرجلُ إلى أهله.

فجاء الأنصار إلى رسول الله وفي أفواههم كلام، فعرف رسول الله ما يدور في نفوسهم، فتبسّم في وجوههم وقال لهم: يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشّاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ قالوا رضينا يا رسول الله بك حظّاً وقسماً، فقال رسول الله: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» وانصرف رسول الله ﷺ يتوجه إلى المدينة المنوّرة، ولما وصل إلى الجعرانة (منطقة تبعد عن مكة ٢٥ كم)، أقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف، أحرم بعمرة، ودخل مكة، فطاف وسعى وحلق رأسه، ثم أخذ الطريق على مرّ الظهران، ثم إلى المدينة المنوّرة.

ولقد أنزل الله تعالى في هذه الموقعة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة].

المقصود بالجنود هنا الملائكة لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ... ﴾

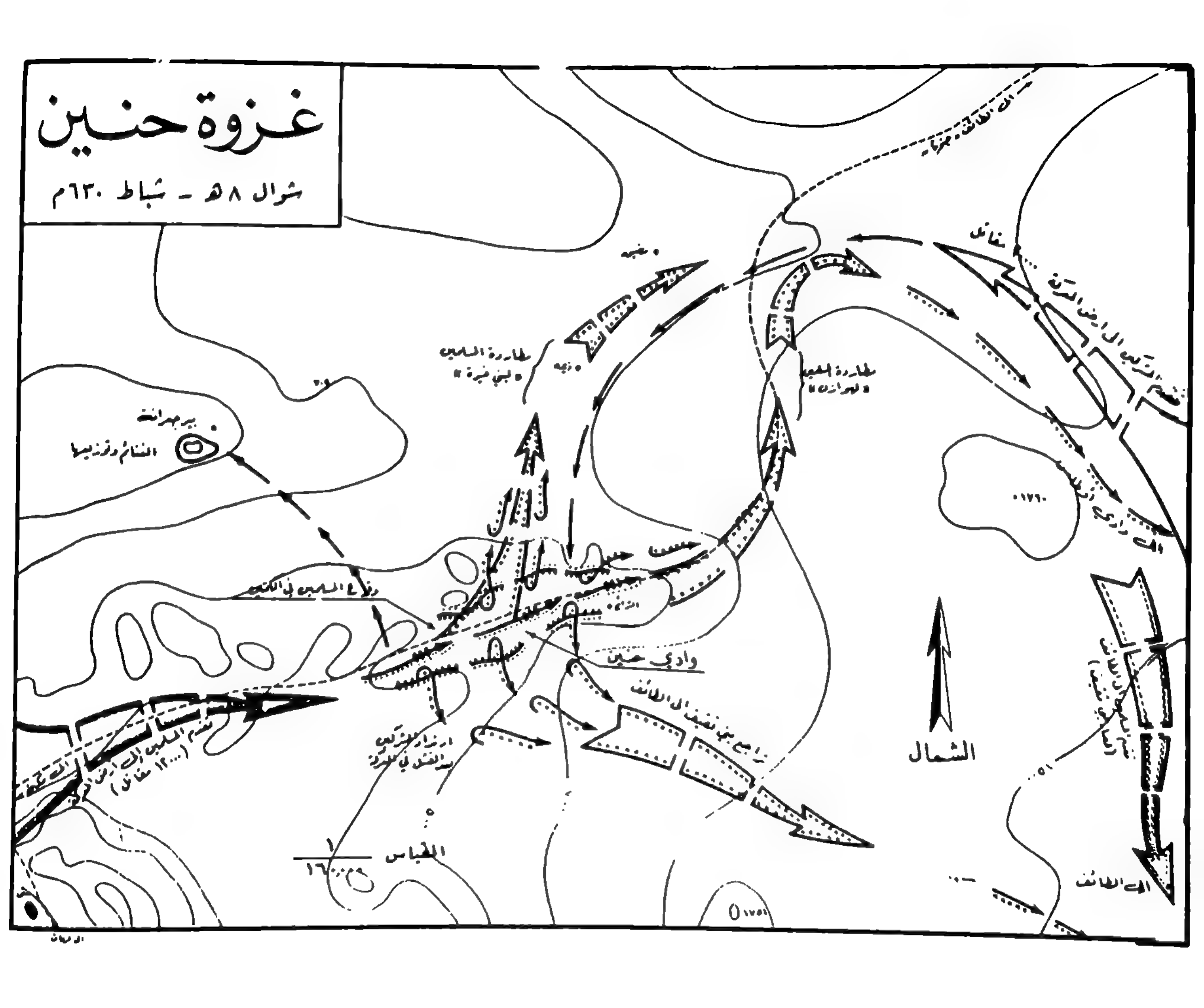
أي أفرغ الله طمأنينته وثباته على رسوله، وعلى المؤمنين الذين كانوا معه. وأنزل جنوداً لم تروها، وهي الملائكة لتقوية روح المؤمنين وتثبيتهم، وإضعاف الكافرين بما يقذفون في قلوبهم من الخوف والجبن من حيث لا

يرونهم، أو يصرعونهم على وجه الحقيقة، كما أن الملائكة كانت تقاتل في يوم بدر مع رسول الله ﷺ. وقال بعضُ مَنْ أسلم بَعْدَ حُنين: أين الخَيل البُلْقُ؟ والرجال الذين كانوا عليهم بيض؟ ما كان قَتْلُنا إلا بأيديهم؟!

إن كل ما تسمعونه عن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فإنه يزيدكم في الإيمان ويهيج لواعج الحب والشوق إلى الرسول وصحابته. ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين.

جدول بياني عن غزوة حنين

الجيش	العدد	العدة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	١٢٠٠٠	١٠٠ درع عاريّة	غير مضبوطة	٤ شهداء	جريح واحد عائد بن عمر ضرب بجبهته	غنم المسلمون ٢٤٠٠٠ بعير ٤٠٠٠٠ شاة ٤٠٠٠ وقية ذهباً وغير ذلك
جيش المشركين	أكثر من ٢٠٠٠٠	عدة كاملة متناسبة مع العدد	-	أكثر من ١٠٠ قتيل	لم يضبط عدد الجرحى غير أنهم أكثر من ١٠٠ جريح كما ورد في بعض الكتب	-


غزوة حنين
شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠م
الشمال
وادي حنين
المقياس

سريتان

لقد حدثت قبل غزوة الطائف سريّتان.

الأولى: (سرية أبي عامر الأشعري).

هو عمّ أبي موسى الأشعري، وكان أبو عامر من كبار الصحابة.

لما فرغ ﷺ من حنين بعثه على جيش إلى أوطاس، خلف الفارّين من قبيلة هوازن.

وكان المنهزمون قد انقسموا ثلاث فرق: فرقة منهم لحقت بالطائف.

وفرقة لحقت بمنطقة نخلة.

وفرقة لحقت بمنطقة أوطاس.

فانتهى إليهم أبو عامر، فإذا هم مجتمعون، فناوشوه القتال، وقتل منهم أبو عامر تسعةً مبارزةً، بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام.

ثم استشهد أبو عامر، قد قتله اثنان منهم.

ثم خلفَ أبا عامر أبو موسى، فأقرّه المسلمون، فقاتل أبو موسى ومن معه حتى هزموهم، وظفروا بالغنائم.

ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، فاستقبلهم وترحّم على أبي عامر.

والثانية: (سريّة الطُّفَيل بن عمرو الدوسي) إلى ذي الكفين.

لما أراد رسول الله ﷺ السّير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو الدوسي، وكان شاعراً لبيباً، من أشراف دوس بعثه إلى ذي الكفين ـ وهو صنم من خشب ـ اتّخذته دوس معبوداً لهم، وذلك في شوال سنة ثمان للهجرة.

وأمره ﷺ أن يأتي بقومه الدوسيين ويلحق به إلى الطائف.

فخرج الطفيل إلى قومه بني دوس، فهدم ذا الكفين، وجعل النار في جوفه، يحرقه، وهو ينشد:

يا ذا الكفّين لستُ من عُبَّادِكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادِكا

إني حشَشَتُ النّارَ في فؤادِكا

حششت: أشعلت. ثم انصرف مع أربع مئة رجل من قومه سراعاً فوافوا رسول الله ﷺ بالطائف بعد وصوله بأربعة أيام.

ومعهم دبابة ومنجنيق والدبابة هي آلة حربية تستعمل وقتذاك حمايةً لعددٍ من الجنود يريدون اقتحام حصن، شكلُها كالخوذةِ الكبيرة، تصنع من خشب وجلد ومعدن نحاسي أو حديدي، يحملها عدد من الرّجال فوق رؤوسهم وينطلقون بها، فتبدوا كالسلحفاة الكبيرة. يتّخذونها، فتحميهم من النبال والرماح إلى أن يصلوا إلى جدار الحصن فينقبونه، وقد استعملها رسول الله ﷺ في فتح خيبر.

غزوة الطائف

غزوة الطائف كانت في شوّال سنة ثمان للهجرة.

فإنه ﷺ خرج من حنين يريد المدينة.

فغيّر وجهَه يريد الطائف، ليغزوها، لمّا علم أن جمعاً من أشراف ثقيف لحقوا بالطائف بعد انهزامهم.

وقد كانت أهالي ثقيف قد رمموا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسَنَةٍ، فلمّا انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيّأوا للقتال، وكان معهم فرسان هوازن وقادتها ومخططوا المعركة الآنفة.

وانطلق رسول الله ﷺ بجيشه، فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك.

فرمى المشركون المسلمين بالنبل رمياً شديداً، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحات، واستشهد منهم اثنا عشر رجلاً.

فيهم عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وأصيبت عين أبي سفيان، فأتى النبيّ ﷺ وعينه في يده، فقال يا رسول الله، هذه عيني أصيبت في سبيل الله؛ فقال: إن شئت دعوت، فردّت عليك؛ وإن شئت فَعَيْنٌ في الجنة؟ قال: في الجنّة ورمى بها من يده.

ودام حصار الطائف ثمانية عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، ونادى

منادي رسول الله: أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حرّ.

فخرج بضعة عشر رجلاً، فأعتقهم رسول الله ﷺ.

وأمر رسول الله ﷺ بقطع أشجار العنب وحرقها ليخوفوهم، فقطعوا بعضها. ثم سألوه أن يدعها فتركها.

واستعمل المسلمون في هذه الغزوة الدبّابة، وهي آلة حربية تستعمل في نقب الحصون.

ولم يؤذن لرسول الله في فتح الطائف، فأمر عمر بن الخطاب فأذّن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، ثم أذعنوا لأمر رسول الله ﷺ، لأنهم ما تعوّدوا أن يعودوا إلا ظافرين.

وشرح الرسول ﷺ وجهة نظره، أن ثقيفاً تزوّدوا في حصونهم بزاد سنة، وأنهم عازمون على البقاء فيها حتى ينفد زادهم، ثم يدافعون عنها بعد ذلك حتى لا يبقى منهم رجل، فرأى رسول الله ﷺ أن لا فائدة من طول الحصار، وأن العدوَّ قد انكسرت شوكته الآن، وأُمن شرّه، وأنه قد صار في محبسه ذاك كثعلب في جحر، إن أقام عليه أخذه وإن تركه لم يضرّ، وكانت الأشهر الحرم قد آذنت، وأوشك هلال أوّلها أن يهلّ. فآثر رسول الله ﷺ أن يرحل بأصحابه ويترك هذا العدوّ إلى حين، فلعلّ اللهَ أن يهديهم، فيأتون إليه مسلمين طائعين.

وهكذا كان، وتحقق لرسول الله ﷺ ما تمنّى، فأسلم مالك بن عوف قائد هوازن وثقيف وغيرهما في حنين، وكذلك أسلم غيره..

ولم تمضِ إلا بضعة أشهر حتى أذعنت بقية ثقيف، ودخلت في دين الله راضية مستسلمة.

ورجع جيش المسلمين إلى المدينة المنورة بعد أن خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى طريق الجعرّانة، وفيها أحرم بعمرة.

ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه، ثم خرج إلى المدينة.

واستخلف رسول الله على مكة عَتَّاب بن أُسيد، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس في الدين ويعلّمهم القرآن.

وكان عتاب فتىً في نحو العشرين من عمره، لكنه كان ورعاً تقيّاً، فأهّله ورعُهُ لأن يكون أميراً على مكة.

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فقدمها في آخر ذي القعدة سنة ثمان للهجرة.

سريَّة صُدَاء

وكان ﷺ بعد انصرافه من الجعرانة قد بعث قيس بن سعد الخزرجي إلى ناحية اليمن في سريَّة صُدَاء، في أربع مئة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلة صداء. وهي حيٌّ من عرب اليمن.

فقدم زياد بن الحارث الصدائي إلى رسول الله قبل أن تصل السرية إلى صداء، وسأله عن هذه السريّة، فأخبره.

فقال: يا رسول الله، أنا وافدهم إليك، فاردد الجيش، وأنا أتكفّل بإسلام قومي، وطاعتهم.

فقال: اذهب إليهم فردّهم.

فقال: إنّ راحلتي قد كلّت، أي تعبت.

فبعث ﷺ إليهم فردّهم.

ورجع الصدائي إلى قومه فقدموا بعد خمسة عشر يوماً، فأسلموا.

فقال رسول الله ﷺ لزياد بن الحارث: إنك مُطاع في قومك يا أخا صُدَاء.

قال: بل اللهُ هداهم.

قال: ألا تؤمّرني عليهم يا رسول الله؟

قال: «بلى، ولا خير في الإمارة لرجل مؤمن».

فتركها، وأَمَرَه رسول الله ﷺ أن يؤذن في صلاة الفجر، فأذن، فأراد بلال أن يقيم، فقال رسول الله: «إنّ أخا صداء أذّن، ومن أذّن فهو يقيم».

الفَصْلُ التَّاسِعُ

السنة التاسعة بعد الهجرة

سـريَّة عيَيْنه

وبعث أيضاً، رسول الله ﷺ إلى تميم سريَّة عيينه بن حصن الفزاري، في المحرّم سنة تسع للهجرة، في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مهاجريّ ولا أنصاريّ.

فكان عيينة يسير بهم في الليل ويكمن بالنهار، إلى أن وصل إلى تميم فهجم عليهم في صحراء.

فلمّا رأوا الجمع ولّوا مدبرين، فظفرت السريّة بأحد عشر رجلاً فساقوهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله فحبسوا في دارٍ في المدينة.

فجاء النبيَّ بعضُ رؤسائهم فيما بعد وكلّموه في شأن الأسرى، فردّ عليهم رسول الله ﷺ أسراهم.

وقد أسلموا وبقوا في المدينة مدّة يتعلمون القرآن والفقه في الدين وسبب هذه السريّة أن رسول الله بعث بشر بن سفيان العدوي، إلى بني كعب من خزاعة، لأخذ صدقاتهم.

وكانوا مع بني تميم على ماء. فأخذ بشر الصدقات ورجع بها.

فقال بنو تميم لبني كعب: لِمَ تعطونهم أموالكم؟

فاجتمع بنو تميم وانتهزوا السلاح، ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة.

فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا، ولا بدّ في ديننا من دفع الزكاة.

فقال لهم بنو تميم: واللهِ لا ندع بعيراً واحداً يخرج.

فلمّا رأى بشرُ ذلك، قدم المدينة، وأخبر النبيّ ﷺ بذلك.

فبعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم وأدّبهم.

سريَّة

كما وبعث سريَّة إلى بني المصطلق بإمرة الوليد بن عقبة. لأخذ الصدقات من بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة. وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد.

وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية.

إلاّ أنهم سمعوا بمجيء الوليد لأخذ الصدقات، فخرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدّونها عن زكاتهم فرحاً به، وتعظيماً لله ولرسوله.

فظنّ أنهم يريدون قتله لرؤيته السلاح معهم، مع أنهم إنما خرجوا بالسّلاح تجمّلاً.

فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه فذهب إلى المدينة، وأخبر النبيّ ﷺ أنهم ارتدّوا عن الإسلام، ولقوه بالسلاح يريدون قتله، أو يحولون بينه وبين الصدقة.

فهمّ رسول الله أن يبعث إليهم من يغزوهم.

وبلغ ذلك القوم، فقدم عليه الركبُ الذين لقوا الوليد، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبر على حقيقته، وكان قد نزل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

فقرأ ﷺ القرآن، وبعث معهم من يعلّمهم دينهم وشرائع الإسلام ويقرئهم القرآن، ويجلب الصَّدَقات.

سريَّة

وفي صفر سنة تسع للهجرة أرسل رسول الله ﷺ (سريَّة) إلى خثعم بقيادة قطبة بن عامر، في عشرين رجلاً.

وأمره أن يشنّ الغارة على حيٍّ من خثعم بناحية تباله، وهي بلدة من أرض تهامة في طريق اليمن. فخرجوا على عشرة جمال، إلى أن وصلوا، فشنّوا الغارة على هؤلاء الكفّار، واقتتلوا قتالاً شديداً، حتى كثرت الجرحى في الفريقين جميعاً. وقتِلَ قطبةُ بن عامر مع مَنْ قُتِلَ. لكن الظفر كان حليف المسلمين، فرجعوا إلى المدينة ظافرين.

سريَّة

وفي شهر ربيع الأوّل سنة تسع من الهجرة، أرسل ﷺ سريَّة إلى القُرْطَاء من بني كلاب.

وأمّر عليهم الضحاك بن سفيان الكلابي، وكان من الشجعان الأبطال. فقاد الجيش إلى أن التقى بعدوّه في (زجّ لاوه) وهو موضع بنجد فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا، فقاتلوهم حتى هزموهم. وغنم المسلمون أموالهم. ورجعوا إلى المدينةِ سالمين.

سريَّة

وفي ربيع الثاني سنة تسع للهجرة، بعث رسول الله ﷺ سريَّة إلى الحبشة، بقيادة علقمة بن مُجَزِّز المدلجي.

وذلك أن النبيّ ﷺ بلغه أن أناساً من الحبشة يساندون أهل جدّة على أمرٍ عدائي للمسلمين.

فوافاهم علقمة في ثلاثمائة مقاتل، حتى انتهى إلى جزيرة في البحر، وقد أبحر إليهم بزوارق صغيرة، فهربوا منه.

ورجع ولم يَلْقَ حرباً، سوى أنه أخافهم فلم يفكّروا بَعْدُ في غدرٍ بالمسلمين.

سريَّة الفُلُس

وفي ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة أيضاً، بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، إلى الفُلُس. وهو صنم كان بنجد تعبده طيء. بعثه ليهدمه، في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض.

فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفلس وخرّبوه. وهرب من الطائيين مَنْ هرب، وأُسر مَنْ أُسِرَ. حتى قدم عليٌّ إلى المدينة.

وقد مَنَّ رسول الله ﷺ على سفّانة بنت حاتم من أسرى الطائيين، فأسلمت وحسن إسلامها، وكان المنُّ عليها سبباً في إسلام أخيها عديّ الذي هرب إلى الشام.

غزوة تبُوك

لقد قامت دولة الإسلام في الجزيرة العربية، وتقوّى سلطانها بغزواتٍ وسرايا بعثها رسولُ الله ﷺ ليطهّرها من الفساد والشرك والوثنية. وكان الروم في شمال الجزيرة العربية ينظرون إلى هذه الحوادث نظر الخوف وذلك لأنّهم كانت لهم مصالحُ شتّى بالجزيرة.

وكانت الروم تحرص على بقاءِ مصالحها، وإنّ أكبر ما يهدد مصالحهم اتحاد العرب، كما أن أفضل ما يحقق مصالحهم تفرّقهم، فمن صالحِ الرّوم ديمومةُ التفرّق.

فلمّا ظهر الإسلام في الجزيرة العربية، أخذ يوحّدهم، ويجمع كلمتهم، وصاروا يدينون بدينٍ واحد ومعتقد واحد، ولهم قائد واحد وهو النبي ﷺ.

وكانت دولة الروم على علم بدعوة الإسلام، وكانت تقدّر ما لهذهِ الدعوة من خطر عليها.

وإنّ موقعة مؤتة، كانت أوّل عمل قام به الرّوم لدرء هذا الخطر عن دولتهم، ولمّا لم تجنِ لهم ربحاً على دولة الإسلام، فأعدّوا عدّتهم للقضاء على هذه الدولة الناشئة، قبل أن يشتدّ أمرُها ويتفاقم خطرها، ولعلهم نووا أن يهاجموها في عاصمتها المدينة المنوّرة فجمعوا ما شاءوا من الجموع من الروم والأعراب والقبائل الموالية لهم كالغساسنة.

وأعدّوا ما شاءوا من العتاد، وأخذوا أُهبتهم، لقطع البلاد وغزو المدينة، وضرب المسلمين في عُقر دارهم.

وبلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشّام، وأن هرقل قد رزقَ أصحابَه لِسَنَةٍ، وأُجْلِبَتْ معه من قبائل العرب (لخم وجذام وعامله وغسّان) وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء، وهي كورة تابعة لبلاد الشام.

فكان لابد أن يفكّر رسول الله ﷺ في دفع هذا العدوان عن أمته، واختار طريقة الهجوم عن الدفاع، مع أنه عبء ثقيل، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وبعث إلى مكة وإلى القبائل يستنفرهم، وأعلمهم المكان الذي يريده على غير عادته، فإنه كان يُخفي خبر جهته من قبل، أما في هذه الغزوة فأعلمهم ليتأهّبوا لذلك.

ولأن الوقت كان حرّاً شديداً، وكانت الثمار قد نضجت، فأصحاب النخيل كانوا مشغولين بالقطاف، ويومها خطب رسول الله ﷺ في الناس خطبة حضّهم على الجهاد، وأمر بالتطوّع، ورغّب أهل الغِنى في فعل الخير والإكثار

من المعروف، وحثّ على النفقات وطلب من الموسرين أن يدفعوا للمعسرين.

فتسارع الناس ينفقون من أموالهم، ويتنافسون في تجهيز جيشهم فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير وخمسين فرساً.

وجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم وهي كل ماله.

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة.

وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً بلغ تسعين ألف درهم.

وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً كثيراً.

وتطوّع عاصم بن عديّ بتسعين وسقاً من التمر.

وساهم النساء بكل ما قدرن عليه من حليّهن، فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ ما بأيديهن من ذَهَبِهنَّ أسورة، وخواتيم، وما بأرجلهنَّ من الخلاخيل، وما بآذانهنَّ من الشّنوف والأقراط، وما بأعناقهنَّ من العقود والقلائد.

وتنافس المسلمون في البذل، حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما: هذا البعير بينكما تعتقبانه.

وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارون في تجهيز الجيش، كلّ بحسب طاقته.

وعجز نفر من فقراء المسلمين عن تجهيز أنفسهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحملهم على ما عنده من فضل الركائب، ولم يكن عند رسول الله منها فضل، فجعل يصرفهم ويقول لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» فانصرفوا وعيونهم تفيض من الدمع، حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد، بسبب فقرهم وعجزهم عن تجهيز أنفسهم، فسمي هؤلاء بالبكّائين. أما المنافقون فقد أخذوا يتعللون وينتحلون الأعذار ليتخلّفوا عن الركب، وكانوا من الأغنياء القادرين على تجهيز أنفسهم وتجهيز غيرهم، ولكن النفاق ضرب على قلوبهم، فلجأوا إلى الحيلة يتعذّرون، وجعلوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود فيأذن لهم، ويعرض عنهم. ولم يكتفوا بأن يتخلّفوا، بل جعلوا يثبّطون الناس ويخوّفونهم لقاء الروم، ويقولون فيما يقولون: يغزو محمَّدٌ بني الأصفر مع جَهْد الحال والحر والبلد البعيد، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟! واللهِ كأنّكم غداً في حبالهم موثقين، أي: مربوطين.

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم، وليقعدوا مع الذين كذبوا الله ورسوله فأعرض عنهم.

عرفنا أن البكائين هم الذين جاءوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يركبون عليه في هذه الغزوة الشّاقة.

وعرفنا المتخلّفين وهم ناس من المنافقين الذين استأذنوا في التخلّف من غير علّة، فمن هم المعذّرون؟

المعذرون من الأعراب هم الذين اعتذروا بالباطل ليؤذن لهم في التخلّف، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ.

وضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، واستخلف عليه أبا بكر يصلّي بهم فإمام العسكر إذن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة.

وعقد الألوية والرّايات، فدفع لواءه العظيم إلى أبي بكر، ودفع رايته العظمى إلى الزبير، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير وراية الخزرج إلى الحُباب بن المنذر. وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتّخذوا لواءً أو راية، وخرج في شهر رجب من السنة التاسعة، قاصداً إلى ناحية الشام، في ثلاثين ألفاً من الناس، فيها عشرة آلاف فرس.

ولم يكن الطريق سهلاً، ولا السفر قريباً، ولا الوقت ملائماً للسير، إنما كان ذلك في زمانِ عُسْرة من الناس، وشدّة من الحرّ.

فكان اسمها غزوة العُسْرة لهذه الشدة التي واجهها المسلمون، وكانت البلاد مجدبة، وكان الناس في هذا الوقت يحبّون المُقام في ثمارهم وظلالهم. ولكنّه الجهاد لدفع عدوٍّ مهاجم، ودرء خطر على الأبواب.

وقد قاسى رسولُ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في هذه السفرة مشقّة بالغة وعنتاً كثيراً، فقد اجتمع في هذه الغزوة إلى بُعْدِ السفر وشدّة الحرّ، جهد الحال وشح المؤونة، وقلّة المركب.

وأصابهم عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الجمل لينفضوا الكرش ويشربوا ماءها.

فكان ذلك عسرة في الماء، وعسرة في النفقة، وعسرة في الظَّهر قال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾.

قال العلماء: أي في غزوة تبوك لقد خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في شدة الحر، على ما يعلم الله من الجهد والمشقة. فأصابهم فيها جهد شديد، حتى كان الرّجلان يشقان التمرة بينهما يمصّها الرجل مصاً.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش حتى ظننّا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه [أي فضلات الكرش] فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله عوّدك في الدعاء خيراً، فادْعُ اللهَ لنا، فقال: أوَ تحبٌّ ذلك؟

قال: نعم. فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء، فلم يرجعهما، حتى آذنت السّماء بمطر، فأطلّت ثم سكبت. فملأ الناس ما معهم...

ولقد كانت هذه الغزوة إلى تبوك اختباراً من الله لهم، لينظر مبلغ صدق الصادقين وصبر الصابرين في سبيل الله والجهاد عن الحق. أما الذين نافقوا فقد خارت قواهم، فيتسلّلون من وراء الصّفوف راجعين.

ومضى رسول الله سائراً، فكان يتخلّف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول

الله، تخلف فلان فيقول: دعوه، فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه...

وتأخر أبو ذر الغفاري على بعيره، فانقطع بعيرُه وأجهد، فبرك عن المسير. فأخذ أبو ذر متاعه فحمله على ظهره، ثم انطلق يتتّبع أثر الرسول ماشياً في جوف الصّحراء والبوادي.

ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر مَن المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده.

فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» فلما تأمّله القوم، قالوا: يا رسول الله هو ـ واللهِ ـ أبو ذر.

فقال رسول الله ﷺ: «رحم اللهُ أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، وشارف على حدود دولة الروم، لم يجد أحداً من العدو.

قد انسحب الرومان إلى داخل بلاد الشام ليتحصّنوا بحصونها، حينما بلغهم أمر جيش رسول الله ﷺ.

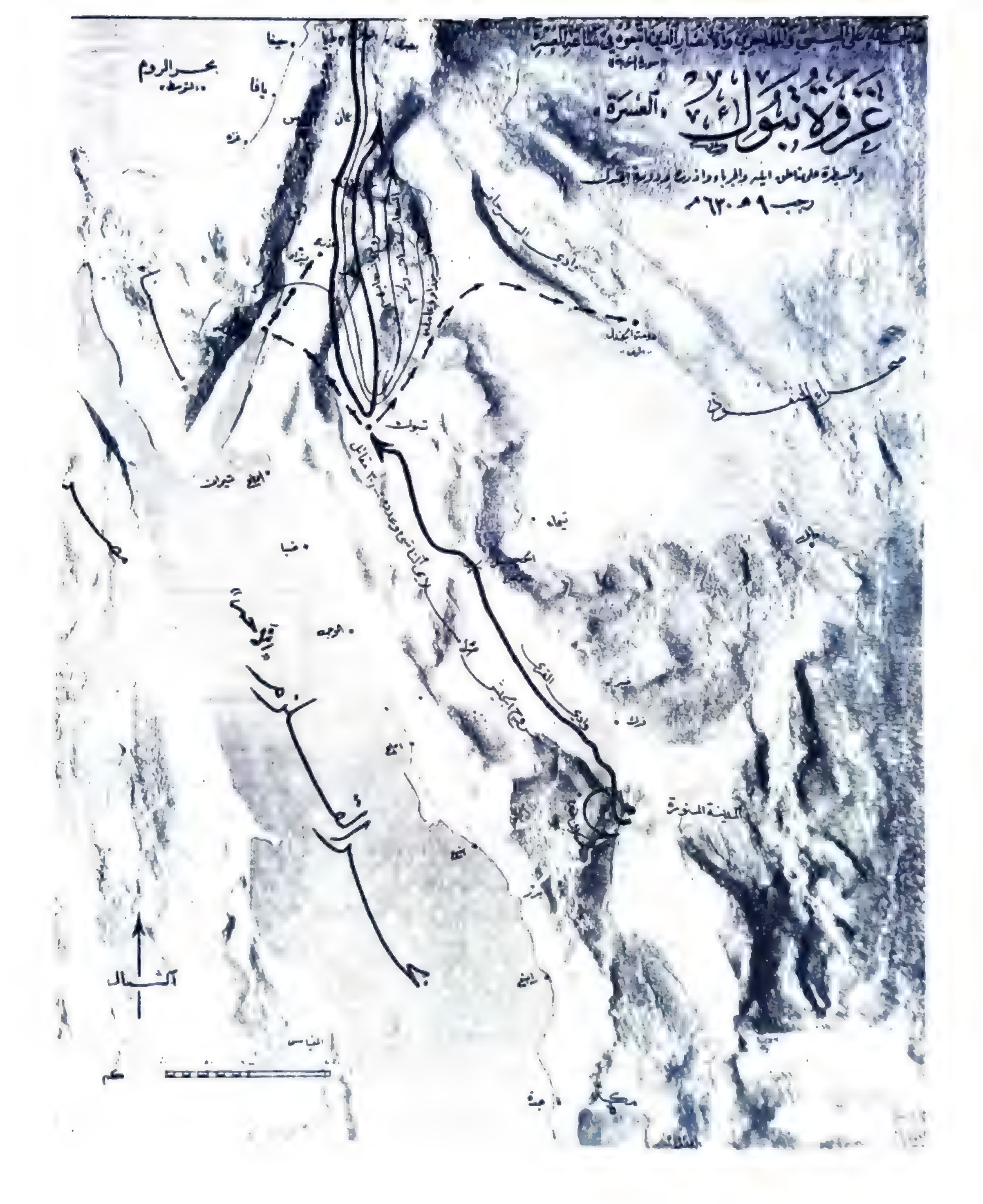
فوقف رسول الله ﷺ عند تبوك لم يجاوزها، لأنه رأى فعل الروم من حشود كبيرة تربض على الحدود ثم تنسحب إلى الداخل إنما هو استدراج

للجيش المسلم حتى يصير بمصيدة مكرِهم. فعسكر في تبوك وصار يبعث سرايا لتؤدب هؤلاء العرب الذين وقفوا إلى جنب الكفّار والمشركين، ليضربوا إخوانهم العرب المسلمين. فبعث السّرايا إلى مَنْ حول تبوك من نصارى العرب التابعين لدولة الروم...

جدول بياني عن غزوة تبوك

الجيش	العدد	العُدَّة		النتائج		
		السلاح	الركاب	القتلى	الجرحى	الأسرى
جيش المسلمين	٣٠.٠٠٠ (ورواية) ٤٠.٠٠٠	لكل مقاتل عدته ولم ترد إحصائية دقيقة في ذلك	١٢.٠٠٠ بعير ١٢.٠٠٠ حصان	-	-	-
جيش المشركين	٢٠٠ ألف رومي مسلحين وقيل أكثر	سيوف وعدة كاملة غير مضبوطة	-	غير مضبوطة	-	-

ولكن كانت غنائم خالد بن وليد رضي الله عنه في سرايا التأديب ٢٠٠٠ بعير و٨٠٠ فرس و٤٠٠ درع و٤٠٠رمح.


غزوة تبوك
العسرة
رجب ٩ هـ ٦٣٠ م
بحر الروم
يافا
تبوك
دومة الجندل
تيماء
الوجه
المدينة المنورة
الشمال
مكة
جدة

سرية إلى أُكَيْدر

سرية خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر في أربع مئة وعشرين فارساً، وجهه إلى دومة الجندل، حيث يملكها نصرانيٌ من قبل هرقل، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه، فشدّ عليه خالد، فأسر بعضهم، بعد أن قاتلوه بشدّه، فقتل من قتل، وهرب من هرب. وانتهى الأمر على المصالحة، بأن يدفعوا جزية لدولة الإسلام.

وبعث ﷺ سرايا أخرى، وكان من نتائجها مصالحة أهل أَيْلَةَ، وأذرح، وجرباء، ومقنا، وغيرها... على أن يدفعوا الجزية للمسلمين، ويدخلوا في أمان الإسلام وعهده.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك نحو عشرين يوماً. ثم استشار أصحابه في أن يجاوزها إلى الشام، فقال عمر: يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسِرْ. فقال ﷺ: لو كنت أمرتُ بالسَّير لم أستشر فيه.

فقال: يا رسول الله، إنّ للروم جموعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوتَ منهم، وقد أفزعهم دنوّك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يحدث الله أمراً.

فأخذ ﷺ بمشورة عمر رضي الله عنه.

وأمر بالرجوع، فرجع الجيش إلى المدينة.

بعد أنْ أمَّن رسول الله ﷺ حدود الدولة من ناحية الشمال، بما عقد من المعاهدات بينه وبين نصارى العرب المجاورين للروم. ولما قرب ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقّيه، وخرج مع الناس الصّبيان والولائد، وهم ينشدون ويضربون بالدفوف، فرحاً بعودة رسول الله وجيشه ظافراً. هل كان بعد غزوة تبوك غيرها من الغزوات أو السرايا؟

إنها آخر غزوة لرسول الله ﷺ، ولكنه بعث سرايا إلى بعض الجهات.

الفصل العاشر

السنة العاشرة بعد الهجرة

سريّة

و سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران في شهر ربيع الأول السنة العاشرة للهجرة، في أربع مائة مقاتل.

وأمره ﷺ أن يدعوهم للإسلام ثلاث مرات قبل أن يقاتلهم فإن استجابوا لك فاقبل منهم، وأقم فيهم، وعلّمهم كتاب الله وسنة نبيِّه ومعالم الإسلام، فإن لم يستجيبوا فقاتلهم.

فدعاهم قائلاً: يا أيها الناس أسلموا تسلموا.

فأسلم الناس والحمد لله، ففعَل كما أمره ﷺ.

بَعْثٌ

وبعث ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، إلى اليمن.

أرسل أبا موسى إلى زبيد وعدن ليدعوهم إلى الدين ويفقّههم بالتعاليم الإسلامية.

وأرسل معاذاً إلى ناحية أخرى من اليمن، وخرج معه يوصيه بوصايا. . .

ثم قال: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلّك أن تمرَّ بمسجدي وقبري. فبكى معاذ لفراقه، ولشعوره بأن النبي ﷺ قد دنا أجله.

سريّة

وبعث أيضاً ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن لجهات أخرى، فخرج في سرية نصابها ثلاث مئة فارس فلما انتهى إلى الجهة المقصودة نشر رجاله، ودعا الناس إلى الإسلام، فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل والحجارة.

ثم صفّ عليّ رجاله، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان، والتحم الفريقان، فقتل منهم عشرين رجلاً.

فتفرّقوا وانهزموا، فكفّ عن طلبهم قليلاً، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام.

وآخر تجهيز عسكري أراد أن يبعثه رسول الله ﷺ كان حينما رجع من حجة الوداع، هو بعث أسامة بن زيد على رأس جيش عظيم إلى بلاد الشام لغزو الروم في عقر دارهم، لكنه لم يتم في حياة النبي ﷺ، بل بعد وفاته سيّره أبو بكر وتمّ النصر للمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

وإلى هنا كان عدد الغزوات والسرايا التي أنفذها رسول الله ﷺ خلال وجوده في المدينة المنورة غزوة وسرية.

كان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه ثمانياً وعشرين غزوة. وجميع ما بعثه من السّرايا تسعاً وأربعين سريّةً.

الفصل الحادي عشر

السنة الحادية عشرة بعد الهجرة

آخر ما همّ الرسول ﷺ ببعثه للجهاد

انتهت المعارضات الوثنية، داخل الجريرة العربية، ولم يبقَ إلا المسلمون الذين حُمِّلُوا أمانة هذا الدين الحنيف.

وتم النَّصْرُ والفتح للإسلام في بلاد العرب، ونزلت سورة النصر، في منى، أيام عيد الأضحى، وهي آخر ما نزل من السور، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

وفيها نعيُ النبي ﷺ، ولهذا تسمى سورة التوديع أيضاً، وحين نزلت قال رسول الله ﷺ، لعائشة: «ما أراه إلا حضور أجلي».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمهُ إياه.

وكان في السنة العاشرة من الهجرة قد أذن رسول الله ﷺ بالحج.

فخرج من المدينة، وبلغ مكة، وعلّم الناس حجّهم وقال: «خذوا عني مناسككم».

وفي ظهيرة يوم عرفة خطب ﷺ في الناس، وهو راكب على ناقته

القصواء. وكان معه من المسلمين عددٌ غفير من الحجاج. وخرج معه للحج جميع نسائه وأهله. وأتم حجه، وقفل راجعاً إلى المدينة المنورة.

وأن كل كلمة قالها في خطبته تحمل دموع الفراق، وريح الوداع... ولهذا سميت خطبته هذه خطبة الوداع.

وكان كل شيءٍ بعد حجته هذه، يشعر بأن أجله ﷺ قد دنا. فكلامه في الخطبة يشير إلى ذلك.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، وقرأها في ذلك الموقف، بكى الصحابة ـ وأكثرهم بكاء أبو بكر وعمر ـ لأنهم علموا أنه ليس بعد الكمال والتمام شيءٌ يراد، وما كانت مهمة الرسول ﷺ في هذه الدنيا إلا أن يبلغ رسالة ربّه إلى الناس، وها هي قد بُلِّغَتِ الرسالةُ، وأديتِ الأمانةُ، وكمل الدين، وتمت به نعمة الله على عباده، فأصبح رحيلُ رسول الله ﷺ عن هذه الدنيا أمراً مترقباً.

وفعلاً لم يمكث النبي ﷺ بعد نزولها سوى ثمانين يوماً ونيفاً.

وما شغَلَهُ وَقْتَهَا إلا إعدادُ جيشٍ عظيم بقيادة أسامة بن زيد، ليسير إلى الشام، لقتال الروم.

فقد أمر ﷺ في أواخر صفر، سنة (١١ هـ) بإعداد جيش كبير، وأمّر عليه أسامة، وقال له: «سر إلى موضعِ قَتْلِ أبيك ـ زيد الذي استُشْهد في غزوة مؤته ـ فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش. فأغر صباحاً على أهل أُبنى ـ

موضع قريب من مؤتة على حدود الشام ـ وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم...».

وكان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار جنوداً في جيش أسامة، ولم يكن أسامة قد بلغ العشرين من العمر.

جهز الجيش، وعزم على تسييره، يبغي بذلك إرهاب الرومان، الذين تسلطوا على العباد، وألزموهم بالوثنية، وليعيد الثقة إلى قلوب المسلمين المتاخمين لبلاد الشام.

ولكن لم يقدر لهذا الجيش أن يخرج في حياة النبي ﷺ، إذ مرض رسول الله، وجعل المرض يشتد به يوماً بعد يوم، حتى شغل الناس به عن أمر الجيش.

وصار بعض الثرثارين ـ الذين لا يخلو مكانٌ منهم ـ يقولون: أمّر غلاماً حدثاً على كبار المهاجرين والأنصار، كأبي بكر وعمر وسعد...

فسمع النبي بذلك، فخرج إلى الناس، عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً بها».

ثم نزل ﷺ، وجدَّ الناس في جهازهم، والتحاقهم بالجيش.

فجاء أسامة إلى بيت رسول الله، يودعه وعليه لباس الحرب، فوجده مريضاً مستلقياً على ظهره، تنبعث الحرارة من جسده، فعانقه وقبله، وودعه وانطلق.

فخرج أسامة، وخرج جيشه معه، حتى نزل بالجرف على بعد (١٠كم) من المدينة، فعسكر هناك، ليستكمل العدد والعدة، قبل الانطلاق إلى ميدان المعركة.

وصار الناس يتلاحقون به، حتى تكاملوا، وصار أسامة يصنفهم أفواجاً أفواجاً، حسب الخطط الحربية وقتذاك.

فجاء الخبر ـ وهو بالجرف ـ أن رسول الله ﷺ اشتد به المرض، وثقل.

فأقام أسامة ولم ينطلق، حتى ينظر ما الله قاضٍ في رسوله ﷺ.

وخيمت على المدينة غمامات الحزن، فرجع أسامة، والجيش على أهبة الانطلاق، ودخل على الرسول، فرآه صامتاً لا يتكلم، ولا يقدر على تحريك شفتيه إلا بصعوبة. . فجعل ﷺ يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها على أسامة، يدعو الله له بالنصر على الرومان المشركين.

ولما ثقل أكثر، استأذن ﷺ أزواجه في أن يمرض في بيت عائشة، فأَذِنَّ له، فخرج يمشي بين الفضل بن عباس، وعلي بن أبي طالب عاصباً رأسه، وقدماه تخطّان في الأرض، لا يقدر على الوقوف عليهما. حتى دخل بيت عائشة، فظل يمرض عندها.

وكان ﷺ حريصاً على أن يصلي بالمسلمين كلما حضرت الصلاة، وأن يعظهم ويوصيهم، ويَتَعَهَّدَ إليهم كلما وجد في نفسه قوة. وذات يوم حضرت الصلاة، وكان قد اشتد به وجعه، فقال: «هريقوا علي سَبْعَ قربٍ من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم».

فصبت عليه عائشة الماء كما أمر عليه الصلاة والسلام، ثم خرج عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر.

فكان أول ما تكلم به، أن صلى على شهداء أحد، فأكثر الصلاة عليهم، ودعا لأصحاب أحد، واستغفر لهم، ثم قال: «إن عبداً من عباد الله، خَيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله».

فبكى أبو بكر، لأنه عرف أنه يريد نفسه، فقال: [بل نفديك نحن بأنفسنا وأبنائنا].

فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر لا تبْكِ».

ثم قال: «أيها الناس، إنَّ أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً.. ولكن صحبةٌ، وإخاء إيمان، حتّى يجمع الله بيننا عنده».

وأعيد ﷺ إلى بيته، وهو حريص على أن يصلي بالناس، غير أنه ضعف عن ذلك. ولما اشتد مرضه وأثقله، قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فجعل أبو بكر يصلي بالناس، حتى صلى بهم سبع عشرة صلاة.

وكان يُعجبه أن يرى الناس تقتدي بأبي بكر، فغالباً ما يرفع الستارة عن نافذة حجرته إلى المسجد، وينظر إليهم وهم يصلون خلف أبي بكر فيبتسّم لذلك.

وفي الأيام الأخيرة ضعف عن الجلوس للنظر إليهم، وذلك إلى فجر يوم الأثنين ـ الذي قبض فيه ـ ولما حضرت صلاة الفجر، واصطف الناس للصلاة

خلف أبي بكر، ونووا وكبّروا، فإذا برسول الله ﷺ على باب حجرة عائشة المطلة على المسجد النبوي، يقف وينظر إليهم، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم، فرحاً برسول الله ﷺ، حين رأوه، وأفسحوا له ليدخل معهم في الصلاة، فأشار إليهم أن اثبتوا في صلاتكم، وتبسّم سروراً بما رأى من هيئتهم في صلاتهم، ثم رجع. وانصرف الناس مطمئنين، لأنهم رأوه قد خفَّ من وجعه. وذهب أبو بكر إلى أهله في ضاحية المدينة، بعد أن استأذن رسول الله قائلاً: يا نبي الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل، كما نحب، فهل تأذن لي بالخروج إلى السنح لأنظر أهلي ثم أرجع؟ فأذن له.

ودخل الرسول إلى حجرته. وفي نفس الناس، أن النبيَّ بدأ يعود إلى نشاطه، ولم يخطر في بال أحدٍ أن ما رأوه ومضة السراج حين ينطفيء.

واضطجع في حجرته، وجعل رأسه على فخذ زوجته عائشة، فدخل عليها ابنُ أختها، وفي يده سواك.

تقول السيدة عائشة: فنظر رسول الله إليه، وهو في يده، فعرفت انه يريد أن يتسوك، فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم.

فأخذته فمضغته حتى لينته، ثم وضعته في فمه، فاستنَّ به، كأشد ما رأيته يستن بسواك قط. ثم وضعه.

ووجدت رسول الله يثقل في حجري، ورأسه الشريف على صدري، بين يدي، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق

الأعلى من الجنة، أشهد أن لا إله إلا الله، واشهد أن محمداً رسول الله، وسقطت يده على حضني.

فقلت: (يا حبيبي يا رسول الله، خُيِّرْتَ فاخترتَ، والذي بعثك بالحق). وقبض رسول الله ﷺ. وعيناها تذرفان بالدموع باكيةً.

كان نبأ وفاة النبي ﷺ حدثاً أذهل العقول، وروّع الأنفس، وفزّع القلوب، وكان وقعه على الناس أشد من أن يحتمل.

فمن الصحابة من عجز عن الحركة، ومنهم من خرس، ومنهم من أقعد مشلولاً، حتى أن عمر بن الخطاب المشهور بقوة القلب، قد حار وطار صوابه، ولقد خرج للناس الذين يتموجون حول بيت الرسول ﷺ، كموج البحر الهائج، فقال لهم: (إن رجالا من المنافقين، يزعمون أن رسول الله ﷺ، قد توفي. وإن رسول الله ـ والله ـ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران لمكالمة ربِّه. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، بعد أن قيل: قد مات...

والله ليرجعن رسول الله، كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال، وأرجلهم، زعموا أنه مات).

وبلغ الخبر إلى أبي بكرٍ، فجاء مسرعاً إلى باب بيت رسول الله، وعمر يصرخ بالناس، فدخل إلى بيت عائشة، ووجه رسول الله مُسَجّى (مغطّى) فأقبل حتى كشف عن وجهه، فقبّله، وقال: (طبت حياً وميتاً، يا رسول

الله. . . بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً).

ثم رد الستارة على وجهه، وخرج إلى الناس، ومازال عمر رضي الله عنه يكلمهم، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، أنصت. . فالتفت الناس إلى أبي بكر، فوقف خطيباً وقال. . . بعد أن حمد الله وأثنى عليه. . أيها الناس: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فقال الناس: فوالله ما هو إلا أن سمعنا أبا بكر حتى دهشنا وتحيرنا.

وقال أبو هريرة: (وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ، قد مات) وتيقّنوا من وفاته، من موقف أبي بكر الحكيم.

وكانت وفاته ﷺ، في يوم الاثنين، حين اشتد الضحى، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، من السنة الحادية عشرة للهجرة. وعمره ثلاث وستون سنة.

وغُسِّلَ ﷺ يوم الثلاثاء، وكفِّن، وجهِّز.

ووضع في سريره، ثم دخل الناس يصلون عليه جماعات جماعات.

ولما أرادوا دفنه، قال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قُبِضَ نبيٌّ إلا دُفِنَ حيثُ قُبِضَ».

فحفر القبر تحت فراشه، ودفن ليلة الأربعاء.

وقال أبو بكر وعمر ومن شـهد هذا الموقف الحزين: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. . . اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله به دينه، وتمت كلماته، فأومن به وحده لا شريك له. فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى يعرفنا، وتعرفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. . .آمين).

وهكذا انتهت حياة النبيﷺ، ولم تنتهِ دعوته ولـم تمتْ رسالته، فلقد ترك رجالاً رباهم على معرفة الحق والفناء فيه، صدقوا الله في عملهم.

فتابعوا مسيرة الهادي الأمين، وضربوا الوثنية ضربة أخمدوها إلى الأبـد. وطردوا الرومان الذين تجبّروا في الأرض واستعبدوا الشعب.

ونظفوا بلاد الشرق من نار المجوس ووثنية الفرس، وكسروا شـوكة الكفر أينما كانت.

وإن الإسلام نورٌ نَعُمَت الخليقةُ به، ولـن يسعد البشر إلا بالاستسـلام لنظام القرآن والسنة، الذي هو مَنْ أخذ به لن يضل أبداً.

الخاتمة

في بيان أهميّة دراسة الجانب العسكري من سيرة النبيِّ محمد ﷺ

كان موضوع الكتاب الذي أوفينا على نهايته دراسة المعارك التي قادها الرسول العربيّ محمد ﷺ لقمع الكفر وإبادة الباطل، وتقليم أظافر الظلم والبغي والطغيان.. دراسة مواكب النور التي رفرفت فوق ذراها رايات الحق والهدى والحضارة الإنسانية، وخفقت في لججها سِنَانُ النصر لترهب أعداء الخير..

وهو موضوع دفعني للتعرف أكثر على روح كل حركِة عسكرية أحدثها منقذ الإنسانية محمد ﷺ. وقد تبين لمطالع هذا الكتاب في حركات الفتح العسكري التي وجهها المصطفى للجهات الأربع من الأرض، انطلاقاً من عاصمة الإسلام، مدينة رسول الله محمد ﷺ، بأن الرسول عليه السلام قد استطاع أن يجمع قبائل العرب جميعاً تحت راية واحدة، وكان أمله أن يجمع العالم كلّه تحت هذه الراية، يوحدهم المبدأ والغاية والكتاب واللغة، فلا يبدونّ لعينٍ اختلاف لون ولا لسان ولا عرق أو جنس، ولا معتقد أو فكر..

مع أنه عليه السلام قد انطلق بثلّة قليلة، لكنّهم آمنوا إيماناً راسخاً بهذا الدين الحنيف، فقوّة هذا الإيمان وثبات المؤمنين به، مكّن للمطمح النبوي هذا

الانتشار، وجعل القبائل تقبل عليه راضية مطمئنّة به، حتى الذين ناصبوه العداء لم يجدوا بدّاً من أن يذعنوا له وأن يدينوا بما جاء به.. حتى كأن جزيرة العرب التقت التقاء عجيباً تحت عَلَمِ الإسلام على عجل، على الرغم من الغزو الفكري المكرّس من قبل. وحين ختم النبيُّ عليه السلام خطبة الوداع فوق عرفات في السنة العاشرة للهجرة، في يوم الجمعة التاسع من ذي الحجّة لم تكن أصداء هذه الخطبة الجامعة لتقف عند حد لا يتجاوز عرفات، أو لايتجاوز مكة، أو حتى لا يتجاوز الجزيزة العربية مكاناً، والسنة العاشرة زماناً.. ولكنّما دوّى صداها وخرق جدار الأزمان حتى نفذت عبر قرون عدّة، وصدق رسول الله بقوله وفعله، إذ قال من قبل ونُفِّذ من بعد: «ليفتتحنَّ عصابة من المسلمين كنز آل كسرى الذي في الأبيض» *[رواه مسلم]*. وقال: «يهلك كسرى ثمّ لاكسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله» *[متفق عليه]*.

واستقرّ في قلب المسلمين الأوائل على وعي كامل أن هذا الدين الاسلاميّ حق وهو منصور لا ريب، وأن دعوته ليست حركة ضيّقة تتوتّر في فلك صغير تحيط به الإمبراطوريات التي امتد سلطانها فلا تقهر، بل كان ـ بفضل إيمانهم وبما تدربوا عليه في مدرسة محمد ـ شعورهم متوثّباً لا يقنع بكومة رمال تخبّأ فيه الرؤوس بيد أن الأجساد منكشفة.. فكسروا الحدود وعبروا الأكمات، وجابوا بعيد الشرق والغرب وقريبهما.

فما أعظم حياة النبيِّ؛ وما أبلغها تأثيراً! فلقد منحت ببعض جولاتها

العسكرية كل نفس مؤمنة الإحساس بالانطلاق إلى كل الأقطار، والطموح إلى إعمار مشارف الأرض بنور الاسلام.

وقامت الدولة الإسلامية، ومهدت لقيام الدولة العظمى، وتوسيع النطاق حتى يشمل سائر البلدان والشعوب.

وامتدت ظلال هذه الشجرة المباركة حتى ظللت عن قريب بلاد الشام والعراق، ثم تجاوزتها إلى شمال إفريقية والمتوسط حتى وصلت إلى جبل طارق غرباً، وفي مدة قليلة امتدت إلى جدار الصين شرقاً.. ولقد كان مفتاح هذا الخير كله العصا التي لوّح بها الرسول محمد ﷺ، وهي غزواته وسراياه التي لا يمكن لصنف من الناس إلا إرهابهم بها، حيث عنصر الشر والتمرّد على كل نظام استحكم بنفوسهم.. وإذن فإن مغازية ﷺ هي بحق عصا الوحدة لهذه الأمة، وهي العمود الناظم لفقراتها المتشتتة، والدعامة الأساس لإنهاض مجدها، بل هي بحق شروق حضارتها في كوكب الأرض، ثم هي ديوان النصر والعزة والمنعة في حياة هذه الأمة، التي هي خير الأمم التي أخرجت للناس.

ومن أجل هذا فانه يجب على المسلمين أن يحتفلوا كل عام بكل غزوة أو سريّة في ميقاتها لبعث روح الحماس والقوة في نفوس أبناء هذه الأمة الخالدة التي كادت جذوة النور أن تخبو في نفوسهم.. ويجب علينا أن نتواصى جهد طاقتنا بأن نجعل التاريخ العسكري الذي ختم به النبيُّ حياته، واستغرق به خلفاؤه سائر حياتهم.. نجعله غرّة في حياتنا، ومعقداً لآمالنا، وأن نربط به

جميع وقائعنا وأحداثنا، وأن لا نعدل به تاريخاً آخر. ويجب علينا أن نهتم به إهتماماً بليغاً، بدلاً من الاهتمام بتاريخ لا يتصل بشيءٍ من جذورنا وتراثنا نحن معاشر العرب والمسلمين..

وأنني استنكر أن يكثر بين مثقفينا من يحفظ التاريخ العسكري لهتلر النازي، أو لفلان القاشي، أو لغيرهما.. ثم تراه لا يعلم الكثير من تاريخ عزته ومجده، ووجوده وحضارته: التاريخ العسكري الإسلامي. وكأنه أمريكي أو بريطاني لا يعنيه هذا التاريخ في شيء. مع العلم أن هؤلاء الأغراب لا ينفكون دائبين على دراسة تاريخنا المجيد يفيدون منه.

هذا وإني أضرع إلى الله تعالى أن ينهض بأمة العرب والإسلام، وأن يوفقها للسموِّ إلى المستوى الرفيع، كما رفع الجدود، وأن يجعل لنا من تاريخ أمتنا الأغر، مشاعل نستضيء بها في شقِّ سبل حاضرنا ومستقبلنا، إنه سبحانه وليّ كلِّ نعمة، ومنه التوفيق، وبه المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

صبيحة يوم الاثنين

١٢ شوال ١٤١٨ هـ - ٩/ ٢/ ١٩٩٨ م

ريف دمشق - بيت سحم

سليم شبعانيه

المحتويات

مصادر ومراجع الكتاب

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ تفسير ابن كثير.

٣ـ صحيح البخاري.

٤ـ صحيح مسلم.

٥ـ الدرر في المغازي والسير لابن عبد البر.

٦ـ الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

٧ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير.

٨ـ صور من حياة الرسول لأمين دويدار.

٩ـ الشفا في بيان حقوق المصطفى للقاضي عياض.

١٠ـ الكافية البديعية لصفي الدين الحلي.

١١ـ خاتم النبيين للإمام محمد أبو زهرة.

١٢ـ كنز العمال للمتقي الهندي.

١٣ـ الجامع الصغير للسيوطي.

١٤ـ تاريخ الطبري.

١٥ـ البداية والنهاية لابن كثير.

١٦ـ سيرة ابن هشام.

١٧ـ عيون الاثر لابن سيد الناس.

١٨ـ السيرة الحلبية للحلبي.

١٩ـ الأنوار المحمدية للنبهاني.

٢٠ـ فقه السيرة للغزالي.

٢١ـ فقه السيرة للبوطي.

٢٢ـ دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل.

٢٣ـ في التاريخ الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل.

وكتب أخرى ذكرت في محلها.

كتب طبعت للمؤلف

أ. الكتب المؤلفه:

١ـ فقه الطهارة والصلاة على المذاهب الأربعة.

٢ـ تعلّم الحج والعمره وآداب الزيارة على المذاهب الأربعة.

٣ـ تعلم الطهارة والصلاة على الفقه الحنفي.

٤ـ تعلّم الطهارة والصلاة على الفقه الشافعي.

٥ـ أدعية مناسك الحج والعمرة وزيارة المدينة المنوّرة.

٦ـ وصايا الرسول إلى النساء.

٧ـ جبل قاسيون والرجال الأربعون.

٨ـ احذروا (الزنا والزناة) الايدز.

٩ـ الاسراء والمعراج

١٠ـ أسرار الدعاء وثمرات الذكر.

١١ـ هكذا تكلم الرسول ﷺ.

١٢ـ السيرة النبوية للشباب.

١٣ـ الغزوات والسرايا التي سيرها النبي محمد ﷺ.

ب. الكتب المحققة:

١٤ـ الدعاء المستجاب.

١٥ـ آداب البحث والمناظرة لابن الوزير الملطي.

١٦ـ الاجتهاد المطلق للشيخ محمد البكري.

١٧ـ متن الأربعين المنذرية للشيخ الحافظ عبد العظيم المنذري.

١٨ـ منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي ومعه تخريج المنهاج للحافظ العراقي.

١٩ـ تفسير جزء عم — للشيخ النبهاني

٢٠ـ تفسير جزء تبارك — للشيخ النبهاني

٢١ـ ورد الفرج — للشيخ أحمد الرفاعي

ج. الكتب المقدمة أو المترجمة:

٢٢ـ حكاية إبليس — للشيخ محي الدين بن عربي.

٢٣ـ الروض الفائق — للشيخ شعيب الحريفيش

٢٤ـ روض الرياحين — لأبي السعادات اليافعي

٢٥ـ رياض الجنة — للشيخ النبهاني

٢٦ـ المجموع المبارك — ويضم أربعة كتب للنبهاني

٢٧ـ روح القدس في محاسبة النفس — للشيخ محي الدين بن عربي.

وكتب أخرى قيد الطباعة.

هذا الكتاب

إن القتال الذي شرّعه النبيُّ محمد ﷺ ، وقاد معاركه بنفسه أو بعض صحابته هو أشرف قتال على الإطلاق ، نزّل الله فريضته على المسلمين لكسر شوكة المتغطرسين ، و لقمع كيد المعتدين ، ولصد الظالمين ، ولحماية حق كلِّ آدميٍّ في دين أو عرض أو نفس أو مال أو أرض .

وأما ما افتراه الحاقدون على الإسلام بأن زعموا أن الإسلام جنح إلى الإرهاب .. فذلك واحدة من مئات حملاتهم الصليبية لمحو نور الإسلام من الأرض ، ابتدأتها عدوّة الإنسانية منذ أحقاب ، و لا زالت الصهيونية و عبيدها نشطةً في ترويج هذه الافتراءات..

ولم يستغرق حال الحرب جُلَّ وقت النبي عليه السلام بغية أغراض رخيصة كما عليه المستعمرون في هذه العصور ، بل كان الجهاد الإسلامي بقيادة محمد أو من يُنيبُه محمدٌ لأهداف رفيعة المستوى لا يدنو من سمائها أي هدف من أهداف سائر المحاربين .

الناشر

